الجمـهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـة

وزارة التعليـــم العـــالي والبحـــث العلمـــي

جامعة مولود معمري –تيزي وزو–

كلية الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

تخصّص: اللّغة والأدب العربيّ

فرع: نظريّة الخطاب

مذكّرة لنيل شهادة ماجستير

إعداد الطالبة: صفية حمادو

الموضوع:

إستراتيجيّة الخطاب في أخبار الثّقلاء

–مقاربة تداوليّة–

لجنة المناقشة:

أ.د/ آمنة بلعلى، أستاذة التعليم العالي، جامعة تيزي وزو ..... رئيسا

أ.د/ مصطفى درواش، أستاذ التعليم العالي، جامعة تيزي وزو .....مشرفا ومقررا

د/ علي حمدوش، أستاذ محاضر صنف "أ" جامعة تيزي وزو، .....عضوا ممتحنا

د/ سامية داودي، أستاذة محاضرة صنف "أ" جامعة تيزي وزو، .....عضوا ممتحنا

تاريخ المناقشة: 2015/01/06

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

أهدي هذا العمل

إلى من عان من شقاء العمل من أجل

نجاح وصلاح فلذات أكباده والدي الكريم.

كما أعني في ذلك والدتي الغالية "مصدر ثمرة المثابرة والإجتهاد"

إلى جميع أخواتي.

إلى القدوة الّتي لقّنت صفة العمل والصّبر على عسر الحياة.

الدكتورة آمنة بلعلى.

"فإنّ بعد العسر يسرا"

صفية

كلمة شكر

بدءا لله الحمد والشّكر

ثمّ الشّكر والعرفان لأستاذي المحترم الّذي أشرف على هذا البحث

الدكتور "مصطفى درواش"

فكان له الفضل في إنارته لنا أهمّ الخطوات الأساسية

الموجب إتّباعها لإنجاح هذا العمل، والتّوجيهات الّتي قدّمها

طوال عمر إشرافه على البحث.

وجزيل الشكر إلى جميع أساتذتي والطلبة في قسم اللغة والأدب العربي.

إلى نعيمة من الإدارة

إلى من قام بطبع هذا العمل

وإلى كل من يحبّني

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات **4**

مقدمة **6**

الفصل الأول:استراتيجية الخطاب الإخباري

I.تصنيف الخبر **13**

1. بنيات الخبر 14

1.1. البنية البسيطة (الخبر): 15

2.1. البنية السّردية البسيطة: 16

3.1. البنية السردية المركبة: 18

2. أنماط الخبر: 22

2-1-الخبر الواقعي: 24

2-3- الخبر العجيب: 28

3. وظائف الخبر: 30

1.3.الوظائف الضمنية للخبر: 30

2.3. الوظائف الطارئة 34

1.2.3. وظائف القصص القرآني 34

2.2.3. وظائف القصص النبوي: 36

3.2.3. وظيفة السرد التربوي الملقن: 37

II.تجليات انعقاد جنس الخبر: **41**

1-التشكلات الصيغية للخبر: 41

1-1-صيغ الأداء في خطاب الخبر: 41

1-2- صيغ الأداء في المتن والسند: 44

1-3- عملية إسناد الخبر.....48
2- تقنية القصّ.....55
2-1-خصائصه في خطاب الخبر.....55
2-2-الآليات البلاغية للخبر.....58
2-2-1- بلاغة الاستعارة والتشبيه.....61
2-2-2- استراتيجية التخاطب في المستويات اللغوية.....64

3-آليات الحجاج في الخبر:.....73

الفصل الثاني:إستراتيجية التلقي والتّأويل

I.الاستراتيجية التخاطبية.....80
1.الاستراتيجية التلميحية:.....81
2. الإستراتيجية الإقناعية :.....86

II. السّخرية كإستراتيجية للإقناع.....91
1.الخطاب السّاخر:.....91
1-1-آلية الحوار السّاخر :.....92
1-2- متعة السّرد:.....100
2. الخرق البلاغي للخبر:.....107
2-1- استراتيجية السخرية (الخبر التفكّهي):.....107
2-2- استراتيجية التهكّم:.....111
3-البعد التداولي للسخرية:.....114
خاتمة.....123
قائمة المصادر والمراجع.....128

مقدمة

تتنوّع النّصوص السردية التراثية في صناعة الكلام العربي القديم الذي يتميز بتعدد أصنافه في نظرية الأجناس الأدبية، خصوصا ما تعلق بفنون الخطابة والرسالة والمقامة والنادرة.... وإذا ما رجعنا إلى مختلف المصطلحات الموظفة في الجهاز التراثي، نجد عناية أصحابه بالقصص والروايات والأخبار الطوال والأمثال والأشعار، وهذا مبرر على ثراء التراث بالفنون النثرية المختلفة إضافة إلى فنون الشعر، كان العرب قديما يهتمون بكل ما هو مسرود لنقل أخبار السلف ونوادرهم وتثبيتها وتدوينها وكانوا مولعين بالأخبار والاستخبار حتى اشتهروا بجمع الأخبار ونقلها لتلقى في الأخير على الجماهير، ويصنعون بذلك مجالس ومحافل في مناسبات عديدة بسرد مختلف الروايات وأحاديث بنوية ونكت وطرف يستعملون في ذلك تقنية الإسناد للإشارة إلى صاحب تلك الروايات والأخبار سواء كان مكتوبا أو شفهيا، مما يشكل لدى الإخباري وحتى المتلقي متعة وفائدة عند سماعها.

كانت وسيلة الحوار عنصرا هاما في عملية تبليغ الفكرة إلى الآخرين. حيث التركيز انصب على بلاغة السرد، باتخاذ الحديث والخبر أداة فاعلة، تعلق الأمر بالشعر أو بالنثر وبمختلف الصيغ المتداولة في ذلك الوقت التي تحيل على مصدر الخبر، وإثراء ذلك الخبر بالحجج والبراهين.

استنادا إلى هذه الخصوصية في السرد، التي وجهت مسار البحث والاشتغال –على هذا النوع من النصوص التراثية–بتبني مدونة تعنى بأخبار الثقلاء، من حيث هي في ضوء مؤلفين تراثيين هما: «ذم الثقلاء» لـ «ابن المرزبان» ورسالة «إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء» لـ«جلال الدين السيوطي». يعالج الموضوع قضية التأدب في المجالسة، إذ إنّ الفضلاء يستثقلون الثقلاء لهذا الغرض، كانت صياغة العنوان بـ: «إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء» – مقاربة تداولية – وذلك بتحليل أخبار الثقلاء وإبراز أهم الإستراتيجيات المستعملة لبلوغ القصد وتوصيل الفكرة وتعميقها في أذهان المتلقين لتلك الأخبار التراثية ومن توظيف عنصر الإسناد.

أفدت في أثناء القراءة والنظر من مباحث نقدية، نحو دراسة حول "إستراتيجية الخطاب في الإشارات الإلهية والروحانية دراسة تحليلية سيميائية" لفهيمة لحلوحي، ودراسة أخرى لـ « سعدية

لكحل» المعنونة بـ «الحجاج في خطابات إبراهيم عليه السلام »– دراسة تداولية – ودراسة أخرى حول « السخرية في أخبار الحمقى والمغفلين» لـ «أسيا العمري».

إن الهدف الأول من البحث في هذا الموضوع هو الكشف عن الإستراتيجية المتّبعة في (أخبار الثقلاء)، وأهمية الحوار في تبرير إقناع الآخر بسبب ذم الثقيل. والبغضاء التي تتنشأ بينه وبين الإنسان الخفيف من خلال الفرضيات الآتية: ما المقاصد والأبعاد التداولية التي تترتب عن رواية أخبار الثقلاء؟ وهل للخطاب الساخر دور في التبرير والإقناع وبلوغ الغاية في وصف الثقيل؟ وما التقنية المستعملة لدى المخاطبين للوصول إلى الفهم والإقناع؟ وهل للسند الديني حضور في تبرير الموقف؟

هذه الأسئلة حاولنا تفصيلها في خطة تضمّنت فصلين: تطرّق الفصل الأول إلى إستراتيجيّة الخطاب الإخباري، حاولنا من خلاله إبراز جنس الخبر في تشكيل تلك الرّوايات والأخبار بالنظر إلى بنياته وأنماطه ووظائفه، ثم انتقلنا إلى إنشاء تلك الأخبار بإيراد مختلف الصّيغ الدالة على أهمية الإسناد في العملية الإخبارية، ثم عرضنا أهم الآليات المستعملة في عملية الحجاج في الخطاب(الخبر).

أما الفصل الثاني: فخصصناه لتحليل أقوال وأخبار الثقلاء بإدماج أهم الإستراتيجيات التي انتقاها المتخاطبون لبلوغ مقاصدهم ومنها الإستراتيجية التلميحية والإستراتيجية الإقناعية، اللّتين تساعدان على عملية الإفهام والإقناع بتلك الأخبار، ثم تطرقنا إلى الخطاب الساخر كملمح للإقناع وكيف يتشكل منه الخرق في بلاغة الخبر، وختمناه بإدراج البعد التداولي للسخرية وما دورها في إقناع الآخر(المتلقي)واستمالته، لينجذب أكثر.

تمّ تبرير العنوان باستثمار مفاهيم التّداوليّة، خصوصا أن موضوع الخبر مركزيّ في التّداوليّة وذلك بالقراءة والفهم، لأن إستراتيجيّة الخطاب تتطلّب الإحاطة بمعارف مختلفة لها صلة بالأنساق الثّقافيّة السّائدة في التّراث العربيّ. كانت مجموعة من المراجع لنا عونا على استنباط بعض الآليّات والقواعد المتّبعة لإنشاء الكلام، ما تعلّق الأمر بالكلام العربيّ: كتاب « سعيد يقطين » «الكلام والخبر» وكتاب «عبد الهادي بن ظافر الشّهري »«إستراتيجيّات الخطاب» مقاربة لغويّة

تداوليّة، وكتاب « طه عبد الرحمن » اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي» والمدوّنتين التّراثيّتين اللّتين اشتغلنا عليهما في المذكّرة.

من الصّعوبات التي واجهتنا أنّنا لم نعثر على كتابات ونصوص تعالج موضوع الثّقلاء لاسيما أنّ اللّغة الموظّفة كانت بحاجة إلى تدقيق، ذلك ما أثّر سلباً في فهم بعض الأقوال ومنها الشّعريّة. إن ما اعترضني أيضا من مثبّطات ذاتيّة وعائليّة، وجدت سبيلها الأقوم إلى التّجاوز بفضل الدعّم المعنويّ والعلميّ، الذي خصّني به أساتذتي الأفاضل ومنهم المشرف مصطفى درواش والأساتذة : آمنة بلعلى والعباس عبدوش، وراوية يحياوي، والسّعيد حاوزة وبوجمعة شتوان وحمو الحاج ذهبية، إضافة إلى السّيد رئيس القسم "سمش الدين شرقي" واللّجنة الموقّرة التي تفضّلت بقراءة المذكّرة ومناقشتها، لكلّ هؤلاء امتناني وتقديري.

الطالبة: حمادو صفية.

عرض وتقديم المدونة

1. كتاب «ذّم الثّقلاء» لمحمد بن خلف بن المرزبان،(ت 309 هـ)،تحقيق: «محمد حسين الأعرجي».

جاء في هذا الكتاب مجموعة من الأخبار التّراثيّة، جرت أحداثها حول المجالسة والحوار الّذي دار بين فئة الثّقلاء والمستثقلين، إذ رويت فيها أحاديث وأشعار حول هذه الفئة، قام فيها الأدباء والأعلام والشّعراء بذمّهم بسبب البغضاء لتي تنشأ عن مجالسه الثّقلاء، وسوء أخلاقهم وعدم احترام أدب المجالسة في جلسات الوعّاظ والمسامرين وذلك بسبب ثقل روحهم، وسوء منظرهم وتدنيٍ أخلاقهم، كانت إشارة المحقّق أن عنوان الكتاب قد ورد في نسخته المخطوطة على أنّه «كتاب الثّقلاء» وهو ما نصّ عليه: « محمّد بن إسحاق النديم» غير أنّ هذا الكتاب ينصّ على أخبار تقوم على ذمّ الثّقيل، فسمّي: « ذمّ الثّقلاء ».

هذا الموضوع يصنّف ضمن المواضيع الّتي تعالج الظّاهرة الإنسانيّة والعرفيّة بالدّرجة الأولى والدّينيّة والإجتماعيّة والسّياسيّة بالدّرجة الثّانيّة. فقد بغض الله العبد الثّقيل وذكر في كتابه الكريم عن مكانة الثّقيل في الدّين والمجتمع على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم غير ناظرين إناه. ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق، وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبهم، ولقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما**﴾[سورة الأحزاب، الآية 53]صدق الله العظيم.

وردت من هذه الآية الكريمة نصوص مقتبسة لقوله تعالى، وما جاء منها أيضا على شكل أحاديث، رويت عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن الأدباء والشّعراء الّذين نبغوا في عصر الثّقافة الإسلاميّة، فكانت الأخبار والرّوايات والأحاديث الشّريفة وسيلة اتّخذها الرّواة للتّعبير عن المعاناة النّاجمة عن مجالسة الثّقيل البغيض الذي تغمض عنه الجفون، وتنغمط منه النّفوس وكل ذلك يدلّ على تهميشهم في المجتمع. ليس لهم مكانة، ولا هدف أو فائدة، ورد هذا في حلة أدبيّة بلاغيّة تراوحت بين النّثر والنّظم، فمنها أشعار، ومنها أحاديث ونوادر وطرف وخطب تحمل في

معانيها وصايا ومواعظ وعبر من خلال ذكر عدّة مناسبات وأحداث وقعت في العصر العباسيّ والإسلاميّ، توضّح أسباب الكتابة عن الثّقيل وذكر صفاته والنّفور منه.

أما المدوّنة الثّانية فكانت عبارة عن رسالة ألّفها العلاّمة « جلال الدّين السّيوطي» فهي محمّلة بالفوائد والطّرائف عن أخبار الثّقلاء، الّتي استقاها وجمعها من أسلاف النّبلاء وزيّنها بالأشعار الرّقائق، متّع بها الأسماع، كما ظهر عدد من المؤلّفين الّذين كتبوا من بعده أمثال كتاب « الحافظ أبي الحسن الخلال» الّذي أتى بعد ابن المرزبان.

من كتب المحدثين الشيخ محمد الزمزمي الغماري في رسالة معنونة بـ: « أخبار الثّقلاء والمستثقلين» طبعت بالمغرب، وأخذت من نسخ عديدة، وكان ذلك منهجا في تحقيقها، حقّقها محمّد بن سليمان مال الله» وهي:

- نسخة الأزهريّة ورمزت بـ « أ ».
- نسخة برلين ورمّزت بـ « ب ».
- نسخة دار الكتب المصريّة رمزها « ك ».
- نسخة المسجد النّبوي رمزها « م ».

كما جاءت أخبار رسالة «**إتحاف النّبلاء بأخبار الثّقلاء» تح: محمّد بن سليمان مال الله(ت: 911هـ)** في أخبار مفردة منسوبة إلى مؤلّفيها منها: ما رواه « الخلال» في كتابه «أخبار الثّقلاء»، وزوائد العقد الفريد لـ « ابن عبد ربه» وديوان « ابن المعتز »، وكتاب « نزهة الندماء »، و« أبو بكر الأنباري» في أماليه، وما روى «ابن المرزبان» من أخبار وأخرى وردت متفرّدة ونقلت وأسندت إلى قائليها.

الفصل الأول: استراتيجية الخطاب الإخباري

المبحث الأول: تصنيف الخبر

1. بنيات الخبر
2. أنماط الخبر.
3. وظائف الخبر

المبحث الثاني: تجليات انعقاد جنس الخبر

1. التشكّلات الصيغية (الخبر).
2. تقنيّات القص.
3. آليات الحجاج في الخبر

I. تصنيف الخبر:

يعدّ جنس الخبر من نظرية الأجناس الأدبية نوعا سرديا بسيطا تناول "سعيد يقطين" في الكلام العربي عنصر الخبر ورأى أنه وحده سردية مستقلة بغض النظر من جهة ثانية عن (صاحب الكلام)، هل ينتمي إلى الخاصة أو العامة، ومن جهة ثالثة بدون اعتبار "محتوى الكلام" هل هو صادق أو كاذب واقعي أم خيالي..."[1]، ذلك أن الخبر نوع أدبي يحتذى به بغض النظر عن محتواه أو صنعه من صحته.

نجد كلمة " خبر" في لسان العرب تعني " الخبير من أسماء الله عز وجل العالم بما كان أو يكون، وخبرت بالأمر أي علّمته خبّرت الأمر أخبره إذا عرفته على حقيقته والخبر بالتحريك واحد الأخبار، والخبر ما أتاك من نبأ عمن تستخبر يقول "ابن سيده": الخبر، النبأ والجمع أخبار وأخابير جمع الجمع. وحكي اللحيائي عن الكسائي": ما يدري وأين صلة المخبر: خلاف المنظر يقال من أين خبره هذا الأمر، أي من أين علمت"؟ والخبير الذي يخبر الشيء بعلمه وقوله. أنشده ثعلب وقال: وشفاء غيّك خابر أن تسألني...."[2]

يقول الإخباريّ في خطابه بتقديم معلومات من كل ما يحتمل الوقوع في الواقع، فالخبر مأخوذ من علوم ومعارف مشتركة بين الناس، تبرهن على خبر معين، دعّم " يقطين" رأيه بعبارة "إبن رشيق" الذي قال: " والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل: من لغة ونحو وفقه، وخبر وحساب وفريضة، واحتياج أكثر هذه العلوم في شهادته وهو مكتف بذاته مستغن عما سواه... "[3]

نجد في معظم المصطلحات الدالة على الماضي القصص والروايات وسرد الأخبار والحكايات فإن السرد يشكل البؤرة المركزية لنقل ومعرفة الأفكار والقيم، أخبار السلف ونوادرهم وهو أيضا في نظر « بول ريكور» « **مصدر أولي من مصادر معرفة الذات ومعرفة العالم** »[4]، إذ أن كل ما هو مدون

1- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسود العربي المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1997، ص 136.

2- ابن منظور، لسان العرب، ج1، ومج1، دار الجيل، بيروت، 1988، ص783.

3- سعيد يقطين، م.س، ص 129-130.

4 -بول ريكور، فلسفة بول ريكور (الوجود، الزمان، والسرد)، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص 31.

عن تجربة مضت إلا وكان وفق خطاب ذي « **أفق سردي معين وأفق مستقبلي تتحكم به الوظائف المختلفة التي تعقب عمليات التمثل، واستخلاص المغزى والتأويل** »[1].

بناء على هذا الرأي يتم تحديد ماهية جنس الخبر ضمن المقولات السردية التي تعني بتناول أقوال وأخبار الرواة التي تعد نصوصا سردية محضة، تقص حكايات وأحداث وقعت عبر العصور والأمكنة. فالخبر بصفته مصدر المعرفة منه نستحضر مقولة ابن خلدون بحيث قال: «الأخبار مما ينبغي أن تتضمنه كتب الأدب التي هي جمع من كلام العرب مما عساه تحصل به الملكة كالشعر عالي الطبقة والشجع ومسائل اللغة والنحو وبعض أيام العرب والمهم من الأنساب الشهيرة»[2].إن الخبر بمثابة المادة الأساسية لعمل الرواية، كما أنه أحد الركائز الأساسية في التداولية، حيث يكون حدثا أو فعلا وقع في الواقع، أو نقل أو حكي من شخص أو عدة شخصيات تكون متواترة أو محورية.

عني رواد النظرية السردية بنظرية الأنواع التي تقوم بتصنيف الأنواع المتفرعة عن شكل الخبر كما سيظهر ذلك من خلال المدونة حيث نجد فيها هذا التنوع الذي يظهر في بنيات الخبر البسيط والمركب.

1. بنيات الخبر:

تتراوح أشكال الخبر في أخبار الثقلاء بين الطويلة والقصيرة، وهي عبارة عن أشكال سردية مختصة، تكون مؤطرة برواة وناقلين للأخبار في سلسلة متواترة، ويأتي الخبر عادة موجزا يظهر ذلك على مستوى النصية أو الخطابية من حيث القصر، كما يقوم الخبر عادة في الثقافة العربية على ذكر السند أي الأصوات المتناقلة والمتداخلة داخل المتن الحكائي للخبر، ورأي «سعيد يقطين» حول شكل الخبر على أنه جنس جامع لأنواع متعددة حدد منها أربع سمات «الأنواع الأصول» المتمثلة في الخبر، الحكاية، القصة والسيرة وتتوحد هذه الأنواع في علاقة تحدث تراكما على مستوى الأحداث والشخصيات، أي أن الخبر يبدأ بصفته أصغر وحدة حكائية (البسيط) لينحو

1- ابراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، الدار العربية للعلوم ناشرون ط1، منشورت الاختلاف، الجزائر، 2008، ص 24.

2- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، نقلا عن: إبراهيم صحراوي، م.س، ص53

نحو التركيب (المركب) وهو وحدة حكائية كبرى تمثل الحكاية والقصة والسيرة، وترتكز الحكاية والخبر على الحدث، أما القصة والسيرة فإنهما تتأسسان على الشخصيات.

1-1- البنية البسيطة (الخبر):

تعد البنى السردية البسيطة النواة المركزية لكل فعل سردي، وقدمت بعض الدراسات تصورا حول مفهوم البسيط «Simple» الذي يستعمله بعض النقاد كمرادف لمفهوم البسيط والذي هو مفهوم آخر وهو «Bref» أي الموجز، تم تصنيف هذا النوع من النص السردي باعتبار البسيط أن يكون أقل تمركزا في الفضاء الزمني بحيث يتم التركيز على الحدث أكثر من أي عنصر آخر[1] إن في مثل هذا النوع أي (الخبر البسيط) الذي له أهمية في بلورة الأحداث كما هي في واقع الشخص في زمن وفضاء واقعي، يبني على التمثيل في عوالم ممكنة، أي تحدث في الواقع، وهذا ما نجده في تصورات « ألان مونتاندون»«A.MONTANDON» الذي وضع الخصائص الأساسية لما هو بسيط في قوله: « الإيحاء والإيجاز والتمثيلية والوقع الدافع إلى التفكير»[2]. يبني سعيد جبار فكرته حول البسيط السرد على ما أقره « آلان مونتاندون» على أنه (الخبر البسيط). «يكون أقل تمركزا في الفضاء والزمان ويكون مركزا على الحدث أكثر من ارتكازه على الشخصيات والإيهام بالواقعية والارتكاز على مرجعيات تاريخية والإيجاز في الأسلوب »[3].

إن الخبر كوحدة حكائية ذات خاصية مميزة، يمكن أن يخرج عن الواقعية، نأخذ برأي « عبد الله العروي» الذي قدم مفهوما آخر للخبر البسيط الذي أسماه (خبر الآحاد): « إن الخبر الآحاد مؤشرا على قانون في طور التكوين، لذا لا يبقي الخبر على حاله، إلا إذا لم يغمس تماما في قانون عام، إذ احتفظ بشيء من العفوية والغموض، ما يبرهن فيه هو معناه الخفيّ»[4].

يعد الخبر البسيط فرعا من النصوص السردية إلى جانب الأنواع الأخرى من السرود، ولأن السرد حاضر في كل زمان ومكان، كما يتجسد من ذلك الآتي: حدثنا عبد الله بن أبي عبد الله

1- سعيد جبار، التوالد السردي، قراءة في بعض أنساق النص التراثي، ط1، جذور للنشر، الرباط، 2006، ص 10.

2 Voir : A.MONTANDON, les formes brèves, Ed Hachette, Paris, 1992, P 100

نقلا عن: سعيد جبار، التوالد السردي، قراءة في بعض أنساق النص التراثي، ص 10.

3 - سعيد جبار، م.س، ص 10-11.

4 - المرجع نفسه، ص 11.

المروزي، حدثنا ابراهيم بن عبد الله عن يحيى بن المغيرة الرازي عن جرير عن سليمان بن أرقع عن الحسن قال: لقد ذم الله عز وجل الثقل فقال في القرآن « فإذا طعمتم فانتشروا »[1].

انطلاقا من تقديم هذا النوع من الخبر، نسأل ما إذا كانت كل الأنواع الخبرية الأخرى الواردة في نصوص أخبار الثقلاء بسيطة غير معقدة؟ أم أن هناك تداخلا بين البسيط الذي يتطور في الأحداث والوقائع ليشكل خبرا أكثر تعقيدا وتركيبا ثم يشكل بها حكايات؟ بأخذ بها القارئ أو الملتقي في عملية التمييز بين صدق الخبر من صنعه، وما المغزى الذي يخرج به في نهاية كل حكي. هذا ما سنكتشفه من خلال معانيه في البنى السردية البسيطة والمركّبة في «أخبار الثقلاء».

2.1. البنية السّردية البسيطة:

- **الخبر**

يأتي الخبر عادة موجزا يظهر ذلك على مستوى النصية أو ما يسمى « بالخطابية» من حيث شكله القصير، كما يقوم الخبر في الثقافة العربية على ذكر السند أي الأصوات المتناقلة والمتداخلة في متن الخبر، فالأخبار هو العلم بالشيء وكيفية توصيله إلى السامع، وللخبر معان متعددة، منها الوقائع والقول المروي[2]. إذا رجعنا إلى المصطلحات الدالة على نقل أخبار السلف من قصص وروايات وحكايات، نجد أن الأخبار في معظمها تتناقل بطريقة تجعلنا في دائرة واسعة ينتشر الخبر حتى يصبح معلوما وشائعا بين الجماهير أي يصبح مشتركا بين الأشخاص أو الرّواة الّذين يتناقلون فيما بينهم تلك الأخبار، تكون بذلك طريقة إنباء بوقائع شتى، ليستقل بها كل من يتلقى حديثا في ممارسة تلقي الخبر، وكيفية تلقيه من شخص إلى آخر، هنا نقف عند أمثلة من قصص الأنبياء (عليهم صلوات الله) من ذلك ما ورد من أحاديث عن الإسرائيليات منها هذه القصة. روى أحمد قال: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد عن ثابت، عن أنس أنّ النبيّ صلى الله

1 –محمد بن خلف ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، تح: د.محمد حسين الأعرجي، ط1، منشورات الجمل، كولونيا، 1999، ص 49.

2– ابراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، الأنواع، الوظائف، البنيات، ص 33.

عليه وسلّم قال: « لما خلق الله آدم، تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به، فلمّا رآه أجوف عرف أنّه خلق لا يتمالك ».[1]

نكون بهذا الأنموذج من القص قد قدّمنا صورة تمثيلية لما سيقدّم في مثل هذا النوع من الخبر في السرد العربي من خصوصيّات البنى التركيّبية والنحويّة التي تتشكّل في المتن الحكائي الذي يبني عليه مسار العمل الحكائي، خصوصا عنصر الحدث الذي يدور حوله الخبر سواء كان بسيطا أو مركّبا، يظهر ذلك في تتبّع خطوات الحكاية من إثارة وخرق وكشف وخلاص.

اتّخذ « محمّد القاضي» في الخبر العربيّ أربع بنيات اصطلح عليها بالطلب والمخالفة والتحويل واللّغز، وعدّها أكثر تداولا، حيث تمثل عنده هذه البنيات الأربع الخطط الأولية التي تسير عليها النصوص السردية، وهي البنى الّتي حلّلها « أندري يولس»«ANDRIES Youls» إلى أمثال سرديّة بسيطة.

إنّ الأخبار البسيطة وخاصة تلك التي تقوم على « بنية اللّغز» أي على الإفتتاحيّة بحالات أو أفعال لا يتبيّن فيها الحافز «Le motif» وتنطلق من وضعية غامضة ثم تتحول إلى وضعية مألوفة، وهو ما يؤدّي إلى استقرار الخبر ومنه هذا الخبر[2].

« حدثنا أبو بكر العامري، حدثنا سعيد أبي داود، حدثنا شيخ يقال له إسحاق كان بعين زربه، عن الحسن، قال خرج موسى عليه الصلاة والسلام يستسقي فلم يسق فقال يارب خرجت مع بني إسرائيل أستسقيك فلم تسقنا، فأوحى الله إليه أنّه كان فيهم عبد أبغضه، قال، من هو يارب حتى أبغضه كما أبغضته؟ قال يا موسى أنا أبغض التباغض من خلقي فكيف أخبرك».

يفتتح مسار الفعل الحكائي في هذا الخبر، بحيث بدأت إمكانية حصول حدث أو فعل السقي لموسى (عليه الصلاة والسلام)، حيث انتقل من وضعية السقي إلى وضعية عدم السقي من هنا يظهر أن إمكانية حصول الفعل لم تتحقق، ثم تطور هذا الفعل الحكائي لينتهي إلى نتيجة هي أن عدم سقي موسى راجع إلى وجود عبد أبغضه الله (عز وجل) وينتهي مسار المتتالية الحكائية

1- أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، تح: صدقي جميل العطار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص 43.

2- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 52.

بالفشل. وصف المشتغلون في السرد هذه العملية في الحكي « بالبنية القاعدية» التي يتشكل منها أساس الحكي في إنشاء وتطوير البسيط وأطلق عليها بـ(التوازن– خرق التوازن – إعادة التوازن) بحيث نرى في بساطة هذا الخبر أنه سرد لحدث غير مفصّل لتفادي الحشو والتكرار، نلاحظ من خلال هذا النوع البسيط أن البنية الحكائية تنمو نموّا أفقيّا، لأن بنية الخبر تكون وجيزة على مستوى الخطاب، إن هذه الظاهرة الموجودة في الأخبار قد أصبحت ذات بنية بسيطة على سرد يرد مفردا أو يتكرر في الخبر الواحد، وإن تكرر على مستوى الفعل فإنه ينفتح على نوع التوازن يتجه إلى لا توازن ثم يعود مرة أخرى إلى التوازن.

3.1. البنية السّرديّة المركّبة:

- **الحكاية:**

إنّ النّوع المركّب الذي هو « **الحكاية**» عبارة عن عمليّة تحوّل من النّوع البسيط إلى النّوع المركّب. عرف « عبد الفتاح كيليطو» الحكاية بأنّها «**مجموعة من الأحداث التي تتوق إلى نهاية، أي أنّها موجّهة إلى غاية هذه الأفعال السّرديّة تنتظم في إطار سلاسل تكثر أو تقل حسب طول أو قصر الحكاية كل سلسلة، يشدّ أفعالها رباط زمني ومنطقي**»[1]. إنّ الحكاية هي ذلك الزخم المتراكم من الأحداث على مستوى الخبر البسيط، وهو ما يشكل البنية الإطنابية على حدّ قول «سعيد يقطين» الذي درس البنيات الحكائية في السّيرة الشّعبيّة فاستنتج أنّها تقوم على انفتاح الخبر البسيط كما يتم توسيع البنية الحكائية للخبر عن طريق هذا التراكم في الأحداث، وهو ما يعزز إحداث خرق في التوازن، يتم ذلك بإنغلاق المتوالية السردية وإنفتاحها، وهي تقنية من تقنيات الحكي في «أخبار الثقلاء«.

هل يحدث هذا الانغلاق والانفتاح على مستوى المتتاليات وكذا وجود الخرق في التوازن وإعادة التوازن؟ أم أنّه يبقى على حال الخبر الذي ينتقل بواسطة الحكي إلى خبر مركب ويحتفظ بسمة الخبر البسيط؟ هذا ما سيظهر على ضوء تقديم بعض العيّنات في الخبر المركّب:

1–عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط 3، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006 ص 39.

- **العينة (أ):**

« حدّثنا عبد الرحمان بن محمدّ، حدّثنا محمدّ بن سعيد، حدّثنا عفان، حدثنا عمر بن علي قال: جاء حجاج بن أرطاة إلى الأعمش، فاستأذن عليه: فقال: قالوا له: ابن أرطاة على الباب، فقال الأعمش: ابكي علي »[1].

- **العينة (ب):**

وقال البهاء زهير في ثقيل أورده اليغموري في « تذكرته »

بـــحـــــقّ الله متّعنـــي من وجهـــك بالبعد
فما أشوقني منك إلى الـ هجـــــران والصـّد
فمـــا تصـــلح للهـــزل ولا تصلح للجـــــدّ
وماذا فيك مـــــن ثقل وماذا فيك من برد
فـــلا صبحـــت بالخير ولا مسّيـــت بالسّعد [2]

- **العينة (ج):**

قال، حدثني أبو محمد الطوسي، عن علي بن محمد القرشي، عن نمير العدوي، قال: استأذن اسماعيل على الغمر بن يزيد بن عبد الملك، فحجب ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكي، فقال الغمر، مالك يا أبا فائدة تبكي؟ قال: كيف لا أبكي وأنا أحجب عنك، ومروانية أبي، ومروانية أبي؟ فجعل الغمر يعتذر وإسماعيل يبكي، فلما خرج قال له رجل، ويلك أي مروانية لأبيك؟ قال أسكت إمرأته طالق، إذ لم يكن أبي نزل به الموت، فلقن لا إله إلا الله، فقال: لعن الله مروان بغيضا صلاة منه له، فجعل ذلك عوضا من قول، لا إله إلا الله، ترى أن له من ذلك من الأجر مثل ما له من الأجر من التوحيد؟[3].

1-ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 66.

2-جلال الدين السيوطي: إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، تح: محمد بن سليمان مال الله، ط 1، دار التواصل بين المشرق والمغرب للنشر والتوزيع، 2009، ص 42-43

3- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 87

نلاحظ من خلال الخبرين (أ) و(ب) أنهما يسيران وفق مراحل الانفتاح ثم الانغلاق ويتوسطهما خرق أو عقدة عندما يصل الخبر إلى الحدث الأساس، نلاحظ مثلا أن حادثة حجاج بن أرطاة تمثلت في مجيئه إلى الأعمش ثم انتقل إلى مرحلة أخرى هي الاستئذان لدخوله إليه، ثم إخباره من كان معه يتوضّح منه بوجود « ابن أرطاة» على الباب، فأجاب الأعمش بأمر البكاء عليه لأنه كان يستثقل « ابن أرطاة »، هنا تنتهي سيرورة هذا العمل الحكائي.

كما نلاحظ ذلك في العينة (ب) بحيث بدأ الخبر بطلب البهاء زهير من تقيل أن يمتّعه بالبعد عنه، ثم تواتر بذكر أسباب الإستثقال بتقديم مجموعة من التبريرات فينتهي بالتقييم، على أن ذلك الثقيل لا يصبح منه بالخير، ولا يمسي بالسّعد.

أما في الخبر (ج) فحدث نوع من التراكم والإطناب على مستوى البنية الحكائية لتصل إلى عقدة هي السؤال عن سبب بكاء «أبا فائد». وأجابه على أنه يحجب عنه بسبب موت أبيه وأمرأته طلقت منه، ثم بعد ذلك حصل الاعتذار، وإسماعيل يبكي، فلما خرج قال له رجل « ويلك أي مروانية لأبيك »، هنا لم تصل الحكاية إلى نهاية، وحدث خرق على مستوى المتتالية السردية، ثم بعدها أجاب « أبا فائد» عن سبب بكائه لأن أباه مات، وقد طلق امرأته، فتأسف من موت أبيه لأنهم لم يوحدوا لأجل موته بل لعنوه لأنه كان بغيضا، ثم تشكل سؤال آخر من الحادثة هو: هل للرجل أجر من لعنته مثل أجر التوحيد، فحدث الخرق في التوازن، بذلك لم تصل الحكاية إلى نتيجة بل بقيت عالقة بسؤال محير، يحتاج إلى جواب.

تقوم البنية الحكاية في بناء العمل الحكائي بوجود ثلاث مراحل هي عند « كلود برومون» الاحتمال – التحقيق – النتيجة:[1].

- الاحتمال: وهو فتح سيرورة أو عدم فتحها.
- التحقيق: يرتبط بالوظيفة الأولى الاحتمال بحيث يتحقق فيها الاحتمال أو لا يتحقق.
- النتيجة: وهي نهاية السيرورة الحكائية للوصول إلى المقصود أو عدم الوصول إليه يرى «كلود بريمون» أن وظيفة التحقيق يمكن أن تتجزّأ إلى أكثر من وظيفة أو فعل انطلاقا من إمكانية

1- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات، ط 1، شركة مدارس للنشر والتوزيع، الرباط، 2004، ص 154- 155

توسيع البنيات الحكائية على توازن النص العربي، وذلك بمراعاة خصوصياته بحيث تقوم البنية الحكائية في النص العربي على وظائف أربع هي:[1]الإثارة – الخرق– الكشف – الخلاص.

يتم سرد الحكاية البسيطة «وفق توالد حكائي أفقي وهو **البناء الذي يلحق البنيتين الحكائيتين بالانتقال من بنية الخبر البسيطة إلى بنية الحكاية المركبة** »[2]. توصل سعيد جبار إلى فكرة هي أن هذا الانتقال بين هتين البنيتين يتم « عبر ادماج التفاصيل الحكائية للحدث الواحد وتفريعه بتوسيع النسق الحكائي وهو ما ينتج التنويع والتعدد على مستوى البنية السردية في مكوناتها المختلفة ففي مقابل الصيغة ووحدة الصوت السردي المهيمن في خطاب الخبر « البنية السردية البسيطة، تصادف تنويعا صيغيا بإدماج الخطاب المعروض بقوة »[3] وذلك بإسهام شخصيات فاعلة، يتم بها تطوير الحدث، فتتميز هذه البنية السردية المركبة باشتغال خطاب الأحداث إلى جانب خطاب الأقوال على حد تعبير جيرار جنبت[4].

إن الخبر البسيط يتميز من الخبر المركب بوحدة الحدث، وتكون أحداثه غالبا خارج عنصري الفضاء والزمن الذي يغيب ليجعل الحدث مفردا يهتم بوصف عوالم ممكنة وشخصية عامة وعادية كما يقدم الفضاء صفة «العام» في خصوصية الخبر أو الحدث الذي يكون خارج ملامح تلك الفضاءات وهذا ما يميز خطاب الخبر من باقي الخطابات الأخرى، منها خطاب الحكاية وذلك يتجلى في خصائص الخبر الأربعة، التي ذكرها « مونتا ندون» وبالأخص خاصية « الوقع الدافع إلى التفكير »، وهذه الخاصية التي يتميز بها الخبر البسيط هي ما يجعل مسار التوالد السردي ينقل من البسيط الأولي إلى ذلك المركب المتولد أو المتفرع عنه.

أما في الخبر المركب فهو ذلك التمازج بين المسار الأفقي والعمودي معا، إذ ينمو الخبر المركب وفق تعدد الشخصيات، وبالتالي تعدد الأحداث وتطوّرها في أمكنة وفضاءات متنوعة، ذلك ما يضمن تعالقا في الوظائف، وهو المرور من وظيفة إلى وظيفة أخرى تكون متفرعة ومتضمنة

1– سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات، ص 155، 156

2– سعيد جبار، التوالد السردي الأفقي: قراءة في بعض أنسلق النص التراثي، ص 81.

3– م ن، ص ن.

4- Gérard Genette, Figures III, Seuil, Paris, 1972, P 186.

مشكلة بذلك بناء عمل حكائي الذي يصير بنية كبرى داخل النص الحكائي، يمكن أن نوضح هذه النتائج على الشكل الآتي[1] :

الخبر / المكونات	الخبر	الحكاية
الشكل	شكل بسيط	شكل ينحو نحو التركيب
الزمن	وحدة الزمن	تعدد الأزمنة
الحدث	وحدة الحدث وبساطته، التركيز على الحدث المركزي	تنوع الأحداث وتشعبها نسبيا التركيز على بعض الجزئيات
الفضاء	وحدة الفضاء أو غيابه، غياب وصف الفضاء وتسميته	حضور الفضاء وتنوعه دون التركيز على وصف ملامحه
الشخصية	ندرة الشخصيات وقلتها	تعدد الشخصيات نسبيا وتنويعيا
الصيغة السردية	وحدة الخطاب السردي وهيمنة الخطاب المسرور	تنوع الخطابات والصيغ السردية بين المسرود والمعروض.

2. أنماط الخبر:

بعد تصنيف الخبر إلى بسيط ومركب بالانتقال من الخبر البسيط إلى الخبر المركب، تنتقل إلى تصنيف الخبر بشكل أفقي، كان الحديث عن نمطيه الخبر منذ « أفلاطون وأرسطو» اللّذين قدما تصورا أدبيا يصفان به طبيعة الفعل السردي بين الحقيقة واللاحقيقة، أما في التصور النقدي، فكانت مقولة الصدق والكذب هي المتداولة، كان العرب يصنفون الكلام إلى خبر أو أمر أو استخبار أو رغبة، أما عند الغربيين فكانت عملية تنميط الخبر السردي محددة في المستويات التي درست الإجراءات، بوضع فواصل منطقية ودقيقة لضبط أنماط الخبر، فكان الاهتمام بالواقعي واللاواقعي منصبا على مفهوم الواقعية في الأدب، التي يتم بها تحليل الأنماط فقد تمت دراسة الأعمال الأدبية خصوصا ما تعلق بأعمال « فرانسوا رابلية»، لكن ما يهمنا هو الكلام حول تصنيف أنماط الخبر في الثقافة العربية لنثبت مقولة الواقعي واللاواقعي في العمل السردي، فكان

1- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات، ص 132

لـ: « رولان بارث» تصور حول هذه الثنائية بحيث جعل الواقع يرتبط بالتاريخ (وما حدث في الواقع) في مقابل التخيلي الذي يشبه الواقعي.

إذا ما رجعنا إلى الدراسات في الثقافة الإسلامية فنجدها قد اهتمت بثنائية الصدق والكذب حيث كان تحديد نمط الخبر ومصداقيّته من خلال عملية إسناد الخبر لقائله وذلك بذكر شخصيات تاريخية أو دينية أو سياسية أو أدبية، تتواتر في متن الخبر لتشكل عوالم ممكنة وحصرها في أزمنة وأمكنة توهم بواقعية الخبر. فهل تتحدد أنماط الخبر في (أخبار الثقلاء) بالصدق والكذب؟ أم تتجاوز ذلك لتخرق قوانين الطبيعة؟ وكيف يمكن الوصول إلى إقناع القارئ بعدم وجود هذا الخرق بين المألوف والتخيلي؟

لإيجاد إجابات لهذه الأسئلة يجب أن نميز أولا بين هذه الأنماط من خلال تحديد مستويات الكلام استنادا إلى أنواع الخبر بين البسيط والمركب الصادق الواقعي والمختلط القريب من الواقع وبين مالا يشبه الواقع (التخيلي).

إن للخبر نمطين: الأول واقعي والثاني تخييلي، فالنمط الأول متعلق بالجلساء والندماء أما النمط الثاني فإنه متعلق بالمادة المحكية الذي ليس لها بعد واقعي وميز" سعيد يقطين" بين الأخبار التي تلقى في المجلس في حقب تاريخية معينة، أما فيما يخص أنماط الخبر التي نجدها في كتب الأخبار فيقول " محمد القاضي" أن شذرات من الأخبار تحمل تصورا وهو إقبال القوم على الأخبار ولا سيما منها العجيب والغريب والظريف والطريف، حتى إنهم يشترطون هذا النوع قبل سماعه ويطرونه إن استجاب لرغبتهم ويستعيدونه إن أرادوا الإمتاع به"[1] هذا ما سنحاول أن نكتشفه من خلال تحليل أنماط الخبر.

1- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي بحث في السردية العربية دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ص 634.

2-1-الخبر الواقعي:

تتجلى واقعية الخبر في غياب سارد تخيلي من المحكي، فالمسافة التي قد يضعها بينه وبين ما يخبر به تساعد على وجود سارد آخر، يمنح لهذه الأحداث خاصية اللاواقعية، تبيّن أنّه يمكن للواقعية أن تجعل من خبر هذا السارد قد وقع بالفعل، يوجد عنصر السند في الثقافة العربية الإسلامية فكانت سلسلة الأخبار تشكل عبر العصور بانتقال الخبر بالتدوين أو المشافهة ليصل في آخر مرحلة إلى صاحب الخبر مباشرة، ما يميز الخبر التاريخي من باقي الأخبار الأخرى، التي نجدها متداخلة فيما بينها كما يرى ذلك سعيد جبار[1].

ننطلق من رأي سعيد جبار لننتقل إلى تقديم أنماط الخبر في (أخبار الثقلاء) لنرى مدى مصداقيتها من افترائها. نلاحظ من خلال كتاب « ذم الثقلاء» أن « ابن المرزبان» قد نهج منهج مصنفات أخرى مشابهة لها كمصنف « العقد الفريد »، « لابن عبد ربه» وبهجة المجالس للقرطبي، و« البيهقي» في « المحاسن والمساوئ»، والزمخشري في « ربيع الأبرار »

لعل منهج « ابن قتيبة» في مصنفه « عيون الأخبار» اتّبعه بدوره « ابن المرزبان» الذي لا يذكر (أخبار الثقلاء ونوادرهم)، وإنما أنباء تبيّن شدة التباغض بين الناس التي سادت عصر «ابن المرزبان» لأسباب سياسية وأخرى شخصية بحتة، كعلاقة « ابن أبي الدنيا» بتلميذه «علي المكتفي» وفي خبر من أنكر على صاحب الفاسق أن سمي ابنه محمدا كل ذلك يحيل على أن موضوع (أخبار الثقلاء) لا يدخل فقط في باب الثقل هذا ما يجعلنا نعتقد أن جزءً من هذه الأخبار مألوف لا يحتاج إلى التفسير والتفكير والتصديق في الأخير، وهذا ما استنتجه محقق كتاب (ذم الثقلاء)« محمد حسين الأعرجي» وهناك من يجعل من بعض أخبار الثقلاء مألوفة هو ذكر مجموعة من المصادر لتلك الأخبار منها: « التذكرات في كتب السلف »، «تاريخ الحافظ المنذري»، «أبو بكر الأنباري» في «أماليه» «تذكرة المذكورة»، وكذا أخبار رويت ودونت عن الصحابة والأنبياء، فلا شك من واقعية وصدق تلك الأخبار، هناك أخبار قد دونت في هذا النمط الأليف في الخبر الآتي:

1- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 193

حدثنا أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، قال أنشدني ابن أبي الدنيا، وكتب به إلى المعتضد أمير المؤمنين، وكان يؤدب ولده علي المكتفي فقال:

إن حق التأديب حق البنوة عند أهل التّقي وأهل المروه

إن حق الأنام أن يعرفوا ذا ك ويرعوه أهل بيت النــبوة[1]

هذا الخبر يخبر عن حادثة الأمير المعتضد الذي كان يؤدب ولده ويذكره بحق التأديب وهو حق البنوة (البنون)، وهذا الخبر قد دُوّن عن قراءة لأنه ذكر من عدة رواة لتقف روايتهم عند «ابن أبي الدنيا» وكان ذلك في تاريخ 483 هـ وهذا يحيل على واقعية الخبر، ولا تظهر فيه أية غرابة.

خبر أخر: وهو خبر سليمان بن أرقم عن الحسن قال: « لقد ذم الله عز وجل الثقل فقال في القرآن ﴿ فإذَا طعَمْتم فانتَشِروا﴾»، هذا الخبر صادق ومعترف به من طرف العام والخاص.

كما يتجسد الخبر الواقعي (الأليف) بعنصر « الشخصية» في العمل الحكائي وكانت عدة دراسات اهتمت بالشخصية في القصة الخرافية وكل الأنواع الأخرى، أول من قام بدراسة واقعية الشخصية الخبرية الباحث الفرنسي «فليب هامون» «Philipe Hamon» في كتابه للشخصيات الروائية»[2]، هذه الدراسة توضح طبيعة الشخصيات وفاعليتها في الأعمال السردية في مستويات ثلاثة[3].

يتعلق المستوى الأول عند « فليب هامون» بمدلول الشخصية، وهو الذي يقدّم صورة ثلاثية لشخصيات مرجعية، وشخصيات إشارية وشخصيات إستذكارية. فقد جعل الفئة الأولى هي التي تقدم صورة حول واقعية الشخصية في العمل الحكائي، لأنها تحيل على مرجعية الشخصية الاجتماعية والتاريخية إلى غيرها من الشخصيات المشاركة في (أخبار الثقلاء)، ومنها نجد خبر «قلابة بن أنس» سليمان بن حرب عن الرسول (ﷺ) حيث قال لم أهديت زينب إلى الرسول(ﷺ) فصنع طعاما، ودعا القوم فجاءوا فدخلوا فجعلوا يتحدثون، وجعل الرسول (ﷺ) يخرج ثم يرجع، وهم قعود فنزلت: ﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾.[4]. فخبر الرسول (ﷺ) كان مألوفا وشخصيات الحدث الحكائي كانت مألوفة أيضا، كما تتفرع عن هذه الشخصية المرجعية شخصيات واقعية أو تخييلية

1- ابن مرزبان، ذم الثقلاء، ص 48

2 - Philipe Hamon : pour un statut sémiotique du personnage, in : poétique du récit, Seuil, 1977.

3- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 198

4- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 48، 49

نجدها تقريبا منعدمة في الأخبار المألوفة من خلال توافر هذه الأنواع من الشخصيات في العمل الحكائي. ينتقل الخبر من نمطه الأليف إلى النمط العجيب وذلك يتوقف عند كل قراءة تختلف من متلق إلى آخر. حسب ما يقتضيه مدلول سياق كل خبر.

كما يكون الخبر مألوفا من صنف «المحتمل» فتكون أحداثه قريبة من الواقع بوجود شخصيات شبه واقعية توازي الشخصيات الحقيقية ما يقارب الواقع، وهذا ما اكتشفناه من خلال إطلاعنا على هذه العينات من الأخبار في كتاب (ذمّ الثقلاء):

- «قال: وأنشدنا محمد بن المرزبان:

وثقيل جلسه في سيـاق ساعة منه مثل يوم التلاقي

ليت أني كما أراه يراني فيلاقي من ثقله مـــا ألاقـي»[1]

- «قال بزرج:

بزرج فقدت كلك من ثقيل فظلّك حين يوزن وزن فيل»[2]

- «قال أنشدني محمد بن علي لبعضهم:

شخصك في مقلة النديم أثقـل من رعيــة النجــوم

يـــا رجل وجهــه جحيـم منك خلاصي من الجحيم»[3]

2-2-الخبر الغريب:

الخبر الغريب هو ما يكون وقوع أحداثه خارجا على العادة والحقيقة، حيث يفوق التجربة، إذ يمكنه أن يتحقق في العالم الواقعي بوجود أشياء تبرر واقعيتها، وتكون في اعتقاد المتلقي حقيقة وتفسر عن طريق قوانين العقل. تتمثل صفة الغرابة في (أخبار الثقلاء) في تلك الاستعارات والتشبيهات والكنايات التي صيغت بها نظرة الشعراء إلى الثقلاء بحيث تولد هذه الأشعار خرق للألفة وكل ما يشير إليه من مقاربة الكلام الذي يشكل طابع الغرابة في اللغة المستعملة لوصف

[1]- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 39.

[2]- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 46.

[3]- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص46.

الثقيل, يختلف تلقي هده الأخبار الاستعارية من قارئ إلى آخر بوجود شخصيات مشاركة في مناسبات إلقاء تلك الأشعار، يكون المتلقي حاضرا في الخبر، أو ينقل من شخص أخر غير محدد في الخبر (راو مجهول)، أو يكون متلقيا من مسافة بعيدة عن زمان ومكان الرواية، كما يتحدد نمط الخبر الغريب في طبيعة الحكاية أو الرواية: هل هي خرافة أو نكتة أو نادرة تخصّ فئة معينة في ذلك السرد؟ فأخبار الثقلاء في معظمها تستدعي هذا النوع من الغرابة في صياغة أفكار وأحاسيس الرواة تجاه الثقيل، ما يستدعي أيضا اللجوء إلى هذه الطريقة في التعبير في وضعيات كثيرة منها استعمال أساليب غير مباشرة، كالسخرية التي بها نروح عن النفوس من الجد والتعب بإلقاء شيء من الطرافة والضحك والمزاح، الذي يكون له مفعول نفسي واجتماعي وتربوي في طبيعة البشر.

يمكن إدراج بعض هذه الأخبار الطريفة والغريبة على النحو الآتي:

حدثنا عبد الرحمان بن محمد الحنظلي، عن أبي يزيد التميمي، قال: سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فقال خللها، قال: أتخوف ألا يبلغها الماء، قال: فإن تخوفت فأنقعها من أوّل الليل. [1]

«حدثنا أبو بكر بن زهير، حدثنا أبو الحسين علي بن القرشي، عن العباس بن يزيد، قال: أهدي رجل إلى الأعمش بطيخة، فلما أصبح جلس الأعمش، فقال له الرجل: يا أبا محمد، كيف كانت البطيخة؟ قال: طيبة، ثم عاد ثانية فقال: طيبة، ثم عاد الثالثة، فقال الأعمش: إن كففت عني وإلا تقيأتها»[2].

تكمن الغرابة في هذه الأمثلة في توظيف عبارات السخرية، في حديث عبد الله بن عباس بن الحسين حين وجه له كلام غريب تمثل في مسافة البعد بين الثقيل والصين، أن أن الصين بعيدة، لذا لا يمكن لإنسان متواجد في الصين أن يستثقل إنسان ثقيل يبعد عنه مسافات طويلة. كما توجد طرافة في حديث عبد الرحمان بن محمد الحنظلي، حين سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فأجابه بسخرية عن كيفية تبليل لحيته، فنصحه الشعبي أن ينقعها في الماء من أول الليل،

[1]– ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 91.

[2]– نفسه، ص 95.

اللحية لا يمكن لها أن تنزع وتبلل ليلة كاملة. هنا يكون المخاطب قد بذل مجهود بليغ لفهم مقاصد المتكلم، وماذا يريد إبلاغه من خلال تلفظ بكلام غريب لا يفهمه سوى فئة معينة في المجتمع.

2-3-الخبر العجيب:

الخبر العجيب هو الذي يكون معناه يتجاوز التجربة ويفوقها، وذلك برصد أحداث في عوالم تخليليّة من خلال ذكر بعض أوصاف الكائنات الخارقة للعادة (كالجن والشبح والغول والشيطان...) بذلك كان مفهوم الحقيقة في ثقافتنا ما يتصل بالعالم المثالي الذي هو عالم خارج عن معتقداتنا ومعارفنا، فإذا ما عدنا إلى أخبار الثقلاء نجد أن الخبر العجيب لا يتربع على مساحة كبيرة مقارنة بالخبر الأليف والغريب فمعظم الأخبار التي وردت كانت تدور في حلقة الواقعي، ما حدث في أزمنة مضت بشكل عادي لا يستدعي التخيل، كان ابن المرزبان وجلال الدين السيوطي بصدد ذكر مناقب ومواعظ ونوادر متعلقة بفئة ضئيلة في المجتمع سعيا من وراء ذلك إلى الإصلاح وتعديل سلوك هؤلاء البشر، وما كان من العجيب إلا ما جاء عفوي، دعوة إلى الملتقي أو السامع لهذه الأخبار أن ينزاح عن الأمر المعتاد، من هذا النمط في الخبر أقترح هذا المثال:

« حدثنا عبد المؤمن بن عبد الله، قال: قدم علي أبي الشمقمق ابن عم له من البصرة زائر، فأقام عنده أياما ودفع إليه شيئا، وخرج فأنشأ يقول:

ألا يا أوخم الثقلين طـــرا وأثقــل من رحــى ومن...

فعدت، كأنما الرحمان ربي براك اليوم من ضم الصخور[1]

وفي باب ذكر الشيطان نجد هذا الخبر:

حدثنا لو [...] ن، حدثنا إسماعيل بن هارون قال، قال المأمون في نديم كان له، وكان يستقله.

ونديم كأنـــــه غصص المو ت كثير المراء يشجي الخليلا

يتفنى وليس يحسن شيئـــــا لا، ولم.....

وصلي في غير وقت صلاة ليس إلا لكـــــي يكـــون ثقيلا

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص102.

ليته شجني وفر إلـى النـــار وكان الشيطان منـــه بديـــلا[1]

نلاحظ من خلال هذيت الخبرين أن صفة الجن والشيطان مختصة بشخصية الثقيل، وذلك ما يدعو الناس إل تصديق الخبر على أنه نمط أليف، بسبب رسوخ بعض المعتقدات لدى الناس التي تحيل على بعض الثقيل كبعض الشيطان، وهذا ما لا يتنافى مع الحقيقة من هنا نستنتج أن الخبر العجيب لا يخرج دائما من طبيعة المألوف، إذ هناك بعض الاعتقادات والبديهيات التي تجعل الخبر العجيب يحمل صفة الحقيقة، وذلك يختلف من ثقافة إلى أخرى ومعتقدات شخص إلى شخص آخر.

انطلاقا مما تقدم من عرض لأنماط الخبر(الواقعي – التخييلي – التخيلي). بدا أن النمط الواقعي مرتبط بواقع وحدث تاريخي بتوظيف شخصيات ومقومات توهم بهذه الواقعية في الخبر فكلما ارتبط الحدث القصصي بشخصية مرجعية، كان الخبر أليفا وواقعيا، والشخصية تلعب دورا مهما في تصنيف أنماط الخبر، وإذا ارتبط الخبر بسرد قريب من الواقع أو يشبه الواقع، فإننا على مستوى خبر غير واقعي كما أننا يمكن أن نصادف في الأخبار الواردة في موضوع الثقلاء أحداثا وحكايات ليس لها بعد مرجعي بعيدة عن المألوف والعادة، مثل الجن والشيطان. فنحن في إطار اللاواقعي المرتبط بالمشابه للواقع والمخالف له من شخص إلى آخر.

يمكن أن نقدم شكلا نبين فيه الأنماط الثلاثة للخبر[2]:

أنماط الخبر

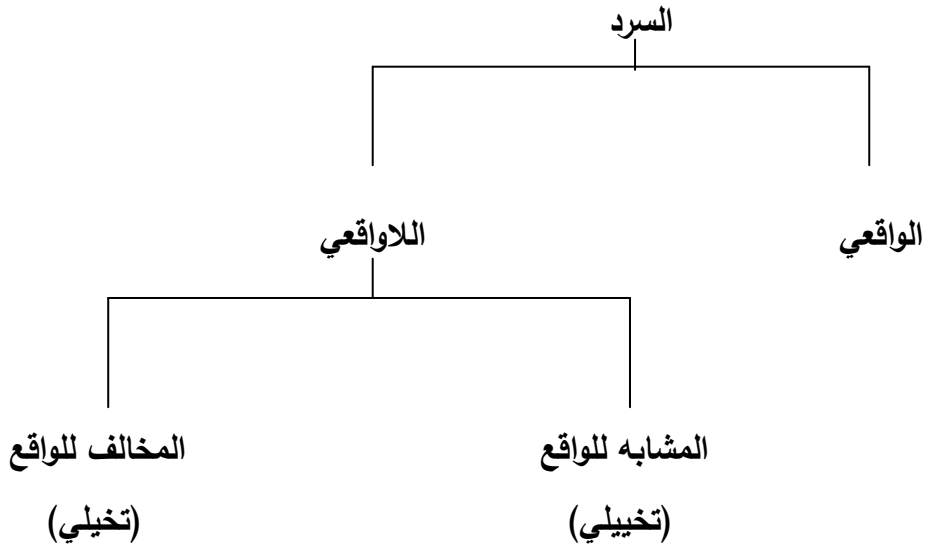

1 – ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 77.

2– سعيد جبار، الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، ص 191

3. وظائف الخبر:

استنادا إلى ما أدرج في العنصر الأول والثاني من هذا المبحث حول البنيات البسيطة والمركبة في الخبر، وكذا معاينة وتصنيف الخبر من زاوية النمطية التي تتحدد وفقها علاقة النص الخبري بمتلقيه ومدى مصداقيته من كذبه، يتعين علينا هذا لإتمام هذا المبحث أن ندرج وظائف الخبر التي يكون منبعها الأول هو « الشخصيات» ومدى فاعليتها في بناء العمل الحكائي في البنيات الحكائية الكبرى والصغرى للنص السردي لنصل إلى ما تحكمه من إثارة ومقصدية لدى المتلقي وكذا معانيه درجة الإقناع في وظائف السرد والأصناف العربية من روايات وقصص، حكايات وسير شعبية، ذلك ما يعزز في تمييز السرود العربية القديمة، مقارنة بمختلف الأنواع السردية الأخرى في العصر الحالي، وذلك راجع إلى عمل الراوي في السرود القديمة الذي كان يبلغ مرويه نهاية الرواية، بحيث يكون مفارقا لمرويه زمانا ومكانا وحدثا، كما ذهب إلى ذلك إبراهيم صحراوي[1].

هذا ما نجده بصفة خاصة في الأساطير والخرافات والقصص والأمثال والأخبار، ويكون ما يرويه الراوي في أخباره لا يتعلق بشخصية أو أحداثه، بل يسرد حكايات لم يكن حتى شاهدا عليها بل يتوصل إلى ذلك بانتقال الرواية في سلسلة من الرواة الآخرين الناقلين والمنقول عنهم، وبذلك يؤمّن السارد من خلال التناقل في الأخبار وظائف متعددة متعلقة بمختلف أنواع السرود منها الحكاية التي تختلف منها الوظائف الأساسية للسرد، وهي الوظائف الضمنية والطارئة.

1.3. الوظائف الضمنية للخبر:

كانت الوظائف المستعملة في إنتاج العمل الحكائي في الثقافة العربية تتمثل فيما سمي بالوظائف الضمنية، فهي تشير إلى عملية الإخبار والاستخبار عن السلف الموجود في حياة العرب وأيامهم، حيث كانوا يتناقلون فيما بينهم ما أنتجه السابقون من شعر ونثر وحكم وأمثال، نجد في الشعر اهتماما كبيرا من العرب، حيث قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن من الشعر لحكمة).

1- ابراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، البنيات، الأنواع الوظائف، ص 96

كان الراوي قديما يروي الأخبار بالإسناد، هذه العملية موجودة في نصوص « ابن المرزبان» ويظهر ذلك من خلال الروايات المسموعة أو المقروءة والمستمدة من المصادر التراثية التي دونت فيها تلك الروايات، فتظهر وظيفة الإخبار التي تتعلق بالأحداث وهي الوظيفة الأساسية في السرد[1].

1. **الوظيفة السردية «Fonction narrative»**: أي نقل الخبر وتوصيله إلى الآخر يتأكد بذلك الطابع الوظيفي للسرد الذي يبين حالة الخبر (المرجعية) إلى جانب النص السردي (القصة) وفيه ينظم السارد وظيفة أخرى (الوظيفة التحكمية).

تتجلى الوظيفة السردية للخبر في (أخبار الثقلاء) في رسالة « جلال الدين السّيوطي»(إتحاف النّبلاء بأخبار الثقلاء): فيما يأتي:

«روي الحافظ أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الخلاّل في كتابه « أخبار الثّقلاء»عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا استثقل الرجل قال « اللهم أغفر لنا وله، وأرحنا منه.

قال الحسن بن هانئ في رجل ثقيل:

ثقيل يطالعنـــا من أمم إذا ســـره رغـــم أنفـــــي ألـــم

أقول له إذا بدا لا بـــدا ولا حملتـــــه إلينـــــا قـــــدم

فقدت خيالك من عمى وصوت كلامـك مـــن صمـم»[2]

2. **الوظيفة التحكمية «Fonction de régie»**: هي التحكم في المروي له وتنظيم جزئياته أي فنيات السرد (شفهيا كان أم كتابيا) التي تجسد عملية التمثيل، أما الثالثة والمتعلقة بالظرف أو المقام مهمتها شد انتباه السامع والتأثير فيه نجد الخبر الآتي:

حدثنا أبو العباس المروزي، حدثنا محمد بن ... الصائغ، حدثنا أبي قال: وجه أبو سليمان الأشقر رسولا من هؤلاء الأحداث المتزمتين إلى الأسود بن سالم في حاجة، فلم يسلم عليه، وقال:

1- ابراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، البنيات، الأنواع الوظائف، ص 97، 98

2-جلال الدين السّيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص21، 30

أبو سليمان يقرأ عليك السلام، فقال: اذهب، فأضجره، وانتهره أسود فرجع الشاب إلى أبي سليمان وأخبره، فلقي الأسود فعاقبه على انتهاره الشاب، فقال أسود: من يطيق أن يسقط عليه الجبل؟[1]

3. **الوظيفة الإبلاغية «Fonction de communication»**: تقوم على تأمين انتباه ومتابعة لأجزاء المسرود، بحيث تتعلق الوظيفة التحكمية والوظيفة الإبلاغية بالخطاب السردي وتسهمان في إنجاح تقنيّات السّرد وتنظّمان الفعل الرقابي.

نجد هذا الخبر:

« حدثنا أبو محمد الأمين، عن حماد بن أبي حنيفة قال: كنا عند رقبة بن مسقلة، فأتاه رجا كان رقبة يستقله، فقال: يا هذا، إن ناحيتكم بعيدة والسماء متغيّمة فقم »[2]

4. **الوظيفة الإيديولوجية التعليمية «Fonction idéologique»**: تتضمن قصد الساردوما يومئ إليه في النهاية من بث نصه التأثير في الملتقي وتوجيهه. هذا نتيجة ما كان للسرد من منافع في تأديته، عندما نشير إلى طابعه الاجتماعي الذي تتم عنه الوظائف الأخرى سواء كانت ضمنية أو طارئة، كما يكون للمتلقي هدف في هذه الوظائف الاستقبال « فلولا المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف »[3].

تجسدت فيما يلي من الأخبار:

« قالت عائشة رضي الله عنها: « نزلت آية في الثقلاء: « فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث»[الأحزاب: الآية 53]».

« وروى الحافظ المنذري في « تاريخه» بسنده، عن ..... الطائي قال: كان الأعمش إذا رأى ثقيلا شرب الماء وقال: النظر إلى وجع الثقيل حمى والحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»[4]

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 105.

2- م.ن، ص106.

3-عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دار توبقال للنشر، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص 33

4- جلال الدين السّيوطي، م.س، ص38.

« حدثنا عبد الله بن عبد الله الخراساني: قال حدثني جعفر بن محمد البرنس قال، سمعت جعفر بن حمير، سمعت محمد بن جابر يقول، لما مات حماد بن أبي سليمان، كان أبو حنيفة ربما لقيني فيسألني المسألة، فيمنعني أن أخبره.»[1]

5. **الوظيفة القياسية التأسيسية:** بها تحقق الحادثة أو الواقعة وظيفتها القياسية لما تحكي أو تقص حيث تؤسّس لواقع جديد، ولحوادث تأخذ بها أو تجنبها حيث يتم بهذه الوظيفة التحكم بما يجب اعتماده، وهو ما أسماه « ابراهيم صحراوي» بالوظائف الطارئة، كما تحقق الحادثة وظيفتها القياسية بالنظر إلى زمانيتها وسياقها الواقعي المحدّد باليوم والسنة ويمر إلى الزمن الكوني[2].

وما ورد من أخبار تحمل الوظيفة القياسية التأسيسية نجد ما يلي:

«قال، حدثني سعيد بن عثمان قال: دخل أعرابي على قوم يتحدثون على شراب لهم فقطع عليهم حديثهم، وثقل عليهم، فقال بعضهم:

أيها الداخل الثقيل علينا حيــن لذّ الحديث لــي ولصحبي

خف عنـــا، فأنت أثقل والله علينا من فرسخي دير كعب »[3]

«وقال سهل بن هارون: من ثقل عليك بنفسه وغمك بسؤاله، فأعره أذنا صما، وعينا عميا »[4]

نلامس من خلال ما ورد في هذه الأخبار، وبعد أن صنفها كل منها في الوظيفة التي تنتمي إليها، أنها تسير كلها في منطق المحادثة، فالوظيفة الأساس في السرد هي النقل والإخبار، وهذا ما قام به رواة الأخبار في (أخبار الثقلاء) وخاصة أن السرد العربي القديم يتوفر على خصوصيات فنية ومضامينية، بحيث يقوم السارد العربي بنقل الأخبار كما وصلت إليه باعتباره آخر من تلقى ذلك الخبر أو الرواية وذلك في سلسلة من الرواة والمروي عنهم كما يتجلى في كلمات (أخبرنا

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص ص 62-64

2- ينظر: إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص98، نقلا عن:

Paul Ricœur, temps et récit 3, le temps raconté, colle points, Ed du Seuil ; Paris 198 PP230-250

3 - م.ن ، ص83-84.

4- جلال الدين السّيوطي، م.س، ص68.

حدثني، قال، حدثنا، سمعت.....) أي أن هذه الكلمات المستعملة في المتن الحكائي تشير إلى الفعل المحادثي أي ما ينجزه المخاطبون في العملية التخاطبية من أفعال إنجازية لتحقيق الهدف من المحادثة وذلك باستخدام مختلف الأدوات التعبيرية والتقنيات الحوارية، فالسرد مظهر اجتماعي يحمل صفة التواصل وتبليغ الفكرة ثم تحقيق القصد.

2.3. الوظائف الطارئة

تتداخل الوظائف الضمنية مع وظائف أخرى خارجية، إذ تكون هذه الوظائف في الغالب تثقيفية وتكشف عن مقاصد كثيرة كانت سائدة في الثقافة الفكرية العربية، وهذا استجابة لما يطرأ على الفرد من التطورات الحاصلة في حاجياته ومتطلبات حياته التي تجلبه إلى إشباع حاجة أو معرفة أسرار الكون أو إضاءة غموض حصل في ظاهرة ما هو البعد الآني لبعض الأصناف السردية أما البعد البعدي لها فهو ما تعلق بالمسرودات التي يستبعدها السارد وما يطرأ عليها من تطورات وسياقات التي تتبع منها وظائف كثيرة ومتعددة، بحيث تسند هذه الوظائف (المقاصد) إلى مبادئ وقيم التي كانت سائدة في مجتمع معين، لذا كانت المادة السردية في المجتمع العربي القديم تحمل معاني متعددة[1] وفوائد منها: « المتعة والجد والهزل والصدق والكذب والصدق والحقيقي والممكن والمستحيل والواقعي والخيالي والحسن والقبيح والمألوف والغريب والمضحك والمبكي والمقنع والمشكك...»[2] إلى غيرها من الأحاديث والأقوال التي ترد في السياقات المرتبطة بغرض معين.

نجد الوظائف الطارئة بارزة في خطاب أخبار الثقلاء منها ما يأتي:

1.2.3. وظائف القصص القرآني:

كان للقرآن الكريم مادة قصصية تحكي عن الماضين منهم أفرادا وجماعات وقبائل بحيث كانت تحمل معاني حجاجية إقناعية «لأن إستراتجية الإقناع بالحجاج واضحة في القرآن

1- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص101

2- م.ن، ص 101-102

الكريم»[1]، بحيث قال الله تعالى ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (سورة الأنبياء، الآية 24).

فالاحتجاج بالقرآن الكريم أداة مهمة من أدوات البيان، فهو ينذر ويبشر كما هو حال الإنذار والتنديد والوعد والوعيد والأمثال والإلزام والإقحام والجدال، فالآيات القرآنية أو القص القرآني يدعم مواقف مارستها الأسس والمبادئ في حياة الناس.

تبين في القرآن الكريم معظم وظائف القصص القرآني وتلخص فيه العبرة من القص والإخبار والإنباء بما يحمله من مواعظ وعبر وتذكرة وهدي للعالمين، على نحو ما ورد في سورة يوسف عليه السلام: « لقد كان في قصصهم عبر لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفضيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»(سورة يوسف: 111).

ارتبطت استراتيجية الإخبار في (أخبار الثقلاء) بمنهج القص القرآني والنبوي بحيث كان الرواة الثقاة يسردون أخبارهم وفق ما ورد من مواعظ زعبر من القرآن الكريم، فيقبسون أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وما حدث في حياته وذكر خصاله لكي يهذب بها عقول (الجلساء الثقلاء) فيقدمون حججهم في محاولة لإقناع الناس بأن الثقيل يبغضه الله ولرسول فيتضاعف التأثير والتصديق بتلك الأخبار المروية على السامعين، نذكر بعض الأخبار التي تندرج فيها بعض الوظائف من القص القرآن في المدونة:

- **خبر(1):**

« حدثنا عبد الرحمان بن محمد الحنظلي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس أن الرسول الله (ﷺ) حديث ذكره قال: لما أهديت زينب إلى الرسول الله(ﷺ) صنع طعاما، ودعا القوم فجاءوا فدخلوا، فجعلوا يتحدثون، وجعل جعل رسول الله (ﷺ) يخرج ثم يرجع وهم قعوا فنزلت: ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا﴾(الأحزاب: 53).[2]

- **خبر (2):**

1- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص 119

2- المرجع نفسه، ص 48.

«وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال: « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون»(الدخان: الآية 12)»[1]

2.2.3. وظائف القصص النبوي:

لا تختلف وظائف القصص القرآني عن وظائف القصص النبوي، فهي تتجانس فيما بينها وتتطابق في الأهداف، فالقرآن والحديث النبوي هما وظيفتان سرديتان متكاملتان، كلاهما يهدف إلى الوعظ والإرشاد وأخذ العبر وتهذيب النفوس. إن وظائف القصص النبوي تدخل ضمن وظيفة السرد التوثيقي التاريخي، فالحديث النبوي هو تسجيل لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء الآخرين (عليهم السلام)، والأخبار الواردة في (أخبار الثقلاء)، نشأت لذكر أخبار وأفعال وصفات الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبات لها سياقات عديدة عند الإخبار بها، منها الوعظية التربوية فكان لرواة هذه الأخبار حافز قوي قوامه الإصلاح وتعديل سلوك الثقيل وبالتالي إقناع المتلقي بما يجب أن يقتنع به.

من هذه الأخبار التي ترد على شكل قصص نبوية ما يأتي:

حدثنا أبي، حدثنا هرولة بن عبد الله، حدثنا أبو داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد، حدثنا زيد بن السلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب، قال: كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال ألا أخبركم بخبر أئمتكم؟ ويدعون لكم. ألا أخبركم بشرار أئمتكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين يبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم »[2]

« حدثنا أبو محمد، حدثنا عمر بن الصامت، حدثنا يونس، حدثنا حماد بن قنادة أن رجلا فعد وسط الحلقة فقال لحذيفه: إن فلانا أخاك قد مات، قال وأنت أحق على الله أن يميتك، سمعت رسول الله (ﷺ) يلعن الجالس وسط الحلقة »[3].

1-جلال الدّين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص29.

2- م.ن، ص 50.

3- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 54.

قام القصاصون في هذه الأخبار بذكر قصص وأحاديث من أجل الوعظ والإرشاد، ففي «صدر الإسلام كان القصاص وعاظ، بل إنهم لا يقصون إلا من أجل الوعظ »[1].
للقصص النبوي أثر كبير، يحدثه القاص في الآخرين من أجل تصحيح أخطاء الماضيين، فهو حين يسرد قصته يهدف إلى التغيير والتعديل من سلوكات الإنسان واستمالته، وهو إستراتيجية محكمة لإعادة النظر في طاهرة ما أو نظرية أو عقيدة في مجتمع معين.

3.2.3. وظيفة السرد التربوي الملقن:

تقوم هذه الوظيفة في « أخبار الثقلاء» «على الاتعاظ والإفادة، ذلك ما قام به عدد من الرواة والخلفاء والشعراء والأدباء في كتاب (أخبار الثقلاء)، كانت المناظرات والمجالسات، والمنادمات محفل التلقين والإرشاد وذكر الأخبار والطرائف التي كانت سائدة في عصر الإسلام وما قبله، وقد اشتهر بهذا النوع من السرود كثير من الرواة، ومنهم « الأصمعي »، « المفضل الضبي»«أبي حيان التوحيدي»، « محمد بن اسحاق المدائني» و«بشار بن برد »»[2]، ما هو معروف عن هؤلاء أنهم يجمعون الروايات وأشعار العرب وأيامهم فيصنعون في مجالسهم حوارا وعظيا تثقيفيا تربويا بأساليب شتى تعبر عن كلام حكيم، تأخذ بها الأجيال وينتشر في أوساط الناس، من بين هذه الأساليب ضرب الأمثال والحكم، «فالمثل غرض تربوي وإرشادي، يقرب المعني إلى الأذهان ويهذب العقول والنفوس، ولكي يحدث تقويم سلوك ما، لابد من ورود مثل قد أنتج بوجود عنصر السرد والحكاية، ووجود حكمة من وراء ذلك السرد أو تلك الحكاية»، قال الله تعالى: ﴿..... وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾[3]. إن ضرب الأمثال يعبر عن فلسفة العرب في الإبلاغ والإخبار عن قصص سالفة ذات هدف إستراتيجي في توصيل المعنى والمغزى من ذلك السرد.

1- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، ط 13، مصر، د ت، ص 437
2 - إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص139.
3- سورة الحشر: الآية 21

من خصائص المثل أنها تقوم على الإيجاز والتعبير الواضح، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ لتلك القصة أو الحكاية، ويكون المثل حافز للإخبار عن هواجس الهمم وخواطر النفوس كما يعبر عند العرب عن فصاحة تامة، أنه « من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه »[1].

من الأخبار التي وردت في السرد التربوي الملقن الذي احتوى على الأمثال والحكم ما يأتي:

« وفي "التذكرة المذكورة"، وقال: الشيخ جمال الدين أبو الربيع سليمان بن محمد بن شبيل النحوي، أخبرني الأديب أبو عبد الله الإسحاقي قال: كتب يوما عند الأديب أبي بكر بن أحمد العبدي، وقد دخل عليه جماعة وأطالوا القعود عنده، فأملى علي»

من مجري من الجبال الرواسي شغلوني وضيقوا أنفاسي

أنسوني بالقرب منهم وما الوحـ شة إلا من ذلك الإيناس

ولغيره:

أخرج حديثك من سمعي وما دخلا لا ترم بالقول سهما ربما قتلا»[2]

« وفي " تاريخ ابن النجار" من طريق الرياشي، عن الأصمعي، عن أبي عمر وبن العلاء قال: قيل للأحنف بن فيس: ما ألذ المجالس؟ قال: ما سافر فيه البصر، وأبدع فيه البدن وكثرت فيه الفائدة، وعدم فيه الثقيل.

«وفي كتاب "نزهة الندما" قال بختيشوع للمأمون: " يا أمير المؤمنين لا تجالس الثقيل، فإن مجالسة الثقيل حمى الروح»[3].

1- الأبشهي شهاب الدين، المستطرف من كل فن مستظرف، ج 1، تح: عبد الله بن أنيس الطّباع، دار القلم، بيروت، د.ت، ص 54

2- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص 43، 51.

3- المصدر نفسه، ص34-36

إذا ما عدنا إلى مصنفات الأمثال والحكم تتأكد أهميتها إذ يقول أبو الهلال العسكري: « ما رأيت حاجة شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته على الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة.....»[1].

كما نجد أن للمأثورات هدفا وموعظة في تقريب المعنى إلى الذهن حاضرة في أخبار الثقلاء في مواضع ومناسبات عديدة، تمثلت بعرض على الجلساء والندماء والمسامرين مجموعة من الأمثال والحكم. يقوم القصاصون بإسنادها إلى قائلها أو إلى جماعة من القائلين لتلك الأخبار فنجد أن المؤلف أو الراوي ينسب الأخبار بصيغ تمثل بها صاحب الخبر أو الحكمة أو المثل تتمثل هذه الصيغ في:[2]

1. **مجهولية القائل:** تمثلت من خلال صيغ: «قال بعضهم لبعضهم، قيل... »
2. **جماعية القائل:** وتظهر في صيغ: «قالت العرب حين تسمر بالليل...»
3. **فردية القائل:** يخصص لشخص معين وتنسب إليه الأخبار «كالرسول عليه الصلاة والسلام، الأصمعي، ابن المرزبان، جالينوس...».

تعني كلمة المثل « المعنى المأخوذ من المعنى الأول، وهو الشبيه لأنه تمثيل، إلا أنه سائر، وقيل من المثال وهو المقدار كما سيق، لأنه يجعل مقياسا لغيره »[3].

حدد للمثل إطار بلاغي يلخصه القول الشهير لإبراهيم النظام: « يجتمع في المثل أربعة لا تجمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة»[4].

كما جعل الله تعالى: « الحكمة ما لا يشبه على ذي لب، وللحكمة فائدة وإن ضرب المثل

1-أبو هلال الحسن عبدالله بن سهل العسكري، جمهرة الأمثال، ج 1، ضبط وتنسيق وشرح أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1988، ص 9.

2 – رشيد عابد، الأشكال النثرية القصيرة في عيون الأخبار لابن قتيبة، دراسة تصنيفية، مذكرة ماجستير، 2010، ص51.

3-الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج 1، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، ط 1، الرباط، 1981، ص 24.

4-الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1988، ص 34

يوضح المنبهم، ويفتح المنغلق ويكون المعنى في الذهن ويزيل اللبس ويقع به الأمر في النفس حسن الموقع...».[1]

نجد ذلك في الخبرين الآتيين: «قال الشعبي: من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء».[2]

«قال الأصمعي: ليست الدنيا أعمى إلا ثقيل ولا أحدب إلا خفيف»[3]

هذه الأخبار أتت على شكل أمثال وحكم تعبر عن أحاسيس الرواة، لتقوي بذلك درجة الإفهام والاقتناع بصفات الثقيل.

نجد للمأثورات هدف تربوي وتوعوي وإصلاحي، حيث تسعى إلى تقوية المبادئ الإنسانية لدى الأفراد والمجتمعات العربية والإسلامية.

عمد المتخاطبون في "أخبار الثقلاء" إلى تبني قواعد التخاطب ومختلف المواضعات اللغوية والاجتماعية والدينية، التي بها يتحقق الفعل الكلامي الناجح، لكي تتم الاستفادة ذلك بوجود قدرات المتخاطبين على بناء النسق الاستدلالي والتأثير في الآخر للوصول إلى النتائج المرجوة، في مختلف عناصر سياق تلك المحادثات.

1- الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ص 31.

2- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 27.

3 - م.ن، ص35.

II.تجليات انعقاد جنس الخبر:

1. التشكلات الصيغية للخبر:

1-1-صيغ الأداء في خطاب الخبر:

يتحدد جنس الخبر أنه كلام يتفرع إلى أنواع، وذلك ما يعده « سعيد يقطين»حين قام بتحليل الكلام وأجناسه، انطلاقا من تحديد صيغته فبالنسبة إليه الصيغة « هي المعيار الوحيد لتحديد تصنيفات الكلام التي تحدد بدورها جنس الكلام أو الغاية منه »[1]. قام بتصنيف الكلام بتحديد نوع الصيغ, التي تحيل على مصدر الخبر، وطبيعته، وهما نوعان [2]:

- **صيغ نوعية:** وهي المتصلة بالكلام من حيث طبيعته الجنسية أو النوعية أو النمط ونجدها في مثل هذه الصيغ: أنشدنا، حدّثنا، قال، حكي، حدثني، أخبرنا، التي تعني (قال واخبر).
- **صيغ مرجعية:** ترتبط بمصادر الكلام، وتمكننا من تعيين أصوله ومصادره على نحو ما نجده في كلمة: (رأيت، سمعت من، كنت مع...) فالقول (قال)هو ما اختزله (سعيد يقطين) في الصيغ النوعية التي تكون متضمنة في الكلام لمتعلق بزمن الحاضر. أما الخبر المرتبط بالزمن الماضي حين نخبر عن شيء مضى بقولنا (أخبر)، والصوت غير المباشر فهو يتعلق بمن ينقل الخبر، فبما أن الخبر نوع من الأجناس الأدبية فهو متعلق بالصيغة وله علاقة مباشرة بالمتلفظ « L'énonciateur» لذا قال سعيد جبار إن «الحديث قديما عن السرد في مقابل العرض أو الصيغة السردية يتم بإرسال شيء على مسافة من مرسله هذه المسافة تكون زمنية أي يخبر بشيء انتهى، وتمّ، وقد تكون مسافة مكانية إذ يخبر عن شيء لا يرتبط بقائله »[3].

نرى هذا التنوّع في الصيغ في كتاب « الثقلاء» فهذا التنوع يظهر طبيعة الإسناد في مجموعة من الكلمات التالية (أخبرني، حدثني، قلت، قال، أنشدني، حكى، سمعت، روى)، وذلك ناتج عن

1 – سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، المغرب، 2006، ص 170.

2- م.ن، ص 171.

3 – سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 94.

أسباب عديدة منها طبيعة المنهج المتبع من طرف المؤلفين في نقل تلك الأخبار عن أصحابها ومن مصدرها. نجد في رسالة «جلال الدين السيوطي»، أنّه حين ينقل (أخبار الثّقلاء) يذكر تلك الأخبار كما رويت عن أصحابها وبشكل دقيق. فما يعرف عن هذا المؤلف هو مؤرخ ينقل تاريخ الأمم السالفة، وتاريخ الصحابة، ينقل تلك الأخبار عن علماء وأعلام دينية وأدبية كما هي أي يسندها إلى قائلها مباشرة، وذلك بالتفسير بالمأثور دون المعقول. كما أنه يبيّن أحيانا أخرى على مدى صحة الرّواية من صنعها، ملقيا عبء التبعيّة في الرّواية على أصحابها فهو يسرد أو يقصّ الرّوايات التي ينقلها عن تلك الشّخصيات المشاركة في ذلك الخبر، ثم يترك الأمر للقارئ ليأخذ بما شاء والأمر سيان مع المؤلف الأديب « ابن المرزبان» في كتابه « ذمّ الثّقلاء» ينقل الخبر من الرواة أنفسهم وما جاء من أخبار عنها، وذلك راجع إلى تعدد مصادر المصّنفات التي أخذت منها جميع تلك الأخبار.

إنّ لهذه الصيغ الإخبارية دلالات خاصة ومحددة، بحيث يتم بها تحديد نوع الخبر المنقول ويصف بذلك الكلام المنسوب إلى قائله، وهذا ما يوضّحه « سعيد يقطين »حيث يصنّف الكلام حسب قائله، وكيف يتصل الكلام في ذاته، وبعلاقته بقائله أو ناقله ويظهر ذلك من خلال الصيغ الآتية[1]:

قال الشاعر أنشد _ قال _ يقال _ قلت.

حكى _ ذكر _ حدّث _ قال _ كتب _ روى _ أخبرنا...

كما قام « سعيد يقطين» بتصنيف الكلام وهو(الحديث، الحكاية، الخبر، الشعر، القصة) لأنّ الأخبار تقال وتصاغ بهذه الطريقة، وذلك باستعمال كلمة (القول، الإنشاد، الإنشاء، الحكي الرّواية)، فإذا تداخلت هذه الصّيغ ستشكّل بذلك أجناس وأنواع مختلفة، كما يبين ذلك « سعيد يقطين» في اعتباره لمثل هذه الصّيغ « حدّثنا أو أخبرنا» اللّتين تستعملان للأقوال والأفعال أو" قيل أو يقال" التي تستعمل في الشعر والنثر، كما يمكننا أن نحدد نوع الكلام من خلال قرائن أخرى أو

1- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 158.

من خلال النص، أما بما يتعلق بالمرجع فبدوره نجده غير خالص لجنس أو نوع معين فالنقل والقراءة والسماع يمكن أن يتّصل بالأجناس والأنواع جميعا[1].

كما ميز بين أنواع الصيغ وطبيعتها في الكلام فإن أجناس الكلام ثلاثة: الخبر والشعر والحديث تتمثل صفة الكلام وصحته انطلاقا من توفر الشروط المقدمة من طرف السامع ويتصف بـ[2]:

1. **صحة الوجود:** أي نسبته إلى المتكلم معين، وراو محدد (السند) وهي النسبة التي ترجع الكلام إلى حقيقته، حيث به تتجنب « الباطل »، والكاذب من الكلام.
2. **حسن الكلام وجماله:** إن الشرط الجمالي والبلاغي أساس الكلام، لذلك نجد أوصافا كثيرة للكلام الذي ينعت تارة بالجيد أو الحسن، وتارة أخرى بالمليح والممتع. ذلك ما يظهر لنا في (أخبار الثقلاء)، التي هي غالبا ما تنحو من الخبر البسيط إلى الخبر المركب، وهو بمثابة الانتقال من نقطة محددة هي القول أو الكلام، إلى بنية الخبر التي هي (فعل القول)، وذلك ما ذهب إليه « محمد القاضي» وقال أن الخبر « يقوم على استعادة قول مأثور ونقل حوار طريق بين شخصين »[3].

نجد في الخبر العربي صيغ تؤدي دور نقل الخبر من راو إلى آخر، فيكون ذلك الانتقال في بنيات الخبر من البسيطة إلى المركبة (الحكاية)، إلى جانب ذلك نجد الأنواع السردية الأخرى كالقصة والسّيرة الشّعبية والرّواية... لأن السرد حاضر في كل زمان ومكان، كما يوضحه «رولان بارث» وهو أن « الخبر يمكن تمييزه بين الإعتباطي المعقد، والتأليفي البسيط فالحكاية تبدأ بكونها خبر بسيطا إلى كونها تنحو نحو المركب»[4].

وهذا ما نلتمسه في هذه العينة الآتية:

1- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 159

2 - سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات، ص 169

3- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، بحث في السردية العربية، دار المغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1998، ص 355

4- رولان بارث، التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء القومي الحضاري، سوريا، 2002، ص10.

«وقال أبو بكر الأنباري في « أماليه» أنشدنا محمد بن المرزبان قال:

إن نفســـي إذا عتبـت عليـــها كان عندي لها عذاب شديد

كان عندي لها جلوس إلــى أث قل شخص على البلاد يرود

ولبعضهم:

وثقيل قال صفني قلت ما فيك أصف

كل ما فيك ثقيــل خل عني وانصرف»[1]

1-2- صيغ الأداء في المتن والسند:

قدم محمد القاضي مفاهيم حول الخبر، وقام بدراسة في كتاب « الأغاني» حيث أخذه كأنموذج للسرد القديم، فقد فسر كيفية إنتاجه وتلقيه فقال: « كان الخبر في سيرورة إنتاجه من حيث المبدأ في الأقل قولا معادا يأخذه اللاحق عن السابق مع بعض التغيير، الذي قد يختلف من راو إلى آخر ومن كتاب إلى آخر. فإنه من العسير أن نجزم بأن أخبار هذا الكتاب ذات خصائص نميزها من أخبار ذاك، أو أن يضمنه هذا المؤلف كتبه من أخبار له سمات ينفرد بها عن أخبار غيره من المؤلفين خصوصا أن الخبر الواحد كثيرا ما نعثر عليه في صيغة واحدة أو كاد تنعدم في أكثر من كتاب»[2]، أي أن سمة الخبر الواحد تتغير من مؤلف أو كتاب إلى آخر حسب ما يتضمنه من روايات أو أخبار تنفرد بخصائصها الموضوعية والفنية، ويضيف في هذا أن الخبر متعدد المعاني بحسب أصناف المعارف التي ترد فيها أولها ما نلمسه من تنازع ألفاظ كثيرا في الحقل الدلالي الذي للفظه « الخبر» مثل الحديث والقصة والحكاية والنادرة، وهي كلمات يستعمل بعضها محل بعض، ويكاد هذا الاستعمال يمحي فيه الفروق بينها، فلفظة الخبر كشف عن أسرار المفاهيم الغامضة المتداخلة تغدو إلى مضلة حتى لا نكاد نفرق بينها، فهي تندرج في نظام حيث كل منها تدخل في أخرى فقد يختص الخبر بدونها وقد يشترك في سماتها[3].

1-جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص 39.

2- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 10.

3- المرجع نفسه، ص 11

أما عن موضوع السند فعدّه متباين الخصائص والوظائف في السرد العربي، فإن القارئ لأسانيد الأخبار يجد نفسه أمام عبارات تعرّف ذلك الخبر وتحدّد نوعية الصيغة التي أخبر بها فنجد نحو « أخبرني، وحدثني، حدثنا وقرأت وروي، وسمعت، وأنبأنا» هي أسانيد حاول «محمد القاضي» دراستها وقد فرق بينها بوضع نسقين: الأول جدولي والثاني نسقي، وجعله يشغل على طرائق الأخبار في الأثر الواحد، فقد حاول بذلك أن يبين الفرق بتقديم تعريف للخبر في المعاجم فوجد أن « الخبر ما أتا من نبأ من تستخبر، والخبير العالم بالخبر وهو المخبر أيضا، ويقال: أخبره خبورة: أنبأه ما عنده»[1] بناء على ذلك فإن العرب تقصى رواياتهم اعتمادا على لفظة العلم والإنباء، اللذين يحملان معنى الواقعة أو الحدث وهي « الأحداث والأقوال» ونقلها إلى السامع وهو ما يقوم به الراوي، وهذا ما نجده طاغيا في (أخبار الثقلاء).

إن هناك من هم في صلة بواقع الخبر، ومنهم من يتحدث عن شخصيات أخرى، ويقصّون قصصهم على شكل روايات وأسانيد، ببراعة متقنة، ولعل كلمة خبر حينما النظر في معانيها، لها خصائصها وأنّها داخلة في سياق التأريخ كالخطابة، الرسائل والأمثال. ورد الخبر في القرآن الكريم خمس مرات، اثنان منها في صيغة الإفراد وثلاث منها في صيغة الجمع، ويعني النبأ في قوله عز وجل ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبّأنا الله من أخباركم﴾(سورة التوبة: الآية 94).

أدرج محمد القاضي موضوع الإسناد في الأدب، وقال إنه يمكن بلوغ الإسناد في الأخبار مبلغ « الذي يغدو معه الإسناد الذي هو موضوع مفخرة المواضيع أدركنا خصيصة جوهرية من خصائص الإسناد في الأدب إذ هو يدل على صاحب القول وإنما بابا يتعين على المبدع دفعه حتى يستطيع ولوج حرم الخبر »[2]، لأن أسانيد المحدثين مختلفة عن أسانيد القدماء، ويبرهن على ذلك « محمد القاضي» بقوله: « وإن كانا في الظاهر يسعيان إلى ربط المتن بمصدره الأصلي، فإن ذلك كان متبعا في الحديث، مهملا في الأخبار، لأن غاية مؤلف كتب الأخبار لا تتمثل في الربط المحكم بين الخبر وأصله أي بين الحديث ومرجعه، بل تتمثل في نسبة الكلام إلى قائل

1- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 48.

2- المرجع نفسه، ص 325.

»[1]. إذا ما عدنا إلى السلاسل المتتابعة في متن الأخبار لا نرى فيه شرط التواتر، إلا أن الإخباري لا يكون متأكدا من أسانيد الرواة وأصحابها على خلاف الإسناد في الحديث، وذلك إلا ما إذا عدنا إلى الماضي لنتأكد من وروده، ففي النصف الثاني من القرن الثالث وخلال القرن الرابع نجد كمية من الأخبار قد دونت، أي لم تعد بحاجة للإسناد، فإن المؤلف عادة ما يقوم بنسج الخبر من كتاب آخر، أو مؤلف آخر، وهو توضيح منه لأنه ليس صاحب الخبر، بتمييز الخبر بين صدقه من كذبه، فوظيفة الإسناد حسب « محمد القاضي» هو الدور الذي تلعبه في « توثيق المتن في عمل يجوز أن نشبهه بالبيوغرافيا»[2].

نجد في متون أخبار الثقلاء توثيق لأسماء الشخصيات، ذلك بتعريف الشخصية المشاركة في ذلك الخبر، كما يكون ذلك التوثيق قد تم عن طريق وجود عنصر الإسناد، الذي يشير إلى صحة الخبر أو الحديث، حيث يلعب دورا يشبه دور الشاهد على صحة رواية ذلك الحديث، كما يقوم بوضع سلاسل للمتن الواحد، حتي يساعد على إقناع القارء بتحديد صاحب ذلك القول أو الخبر. إن كلمة بيوغرافيا تعني ذكر الشخصية الرئيسية التي روت ذلك الخبر بعد ذكر عدة أفعال في المتن الواحد، بالتالي تعتبر تلك الشخصية واضعة للخبر وليست ناقلة له.

وقدم مثالا عن ذلك على المتن الحكائي في كتاب (الأغاني) لـ « أبي الفرج الأصبهاني» على أنه قدم سلاسل للمتن الواحد لتوضيح كيفية نقل ووضع الخبر، إذ يكتفي ناقل الخبر بسلسلة واحدة من الأخبار فتصبح قيمة الإسناد في الأخبار الأدبية جزءا لا يتجزأ من استراتيجية الخطاب، يمكن إرجاع ذلك إلى أسباب عدة تجعلنا نلمّ بجميع الأخبار المسندة، ونقوم بتحليلها، ذلك بدراسة الأسانيد في تاريخ الأدب وتاريخ الأفكار للتمييز بين الأخبار المولّدة والمنحلة منها، ويتم ذلك بالتفحص عن صحة الأسانيد وألا نشك فيها بالمطاوعة مع رجال السند، وما يوافق عصر أو تاريخ الأحداث وأننا على علم أن إسناد

1 – محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 327

2– المرجع نفسه، ص 327.

الخبر، وتمييزه حقيقته من صنعه الأمر متعلق بتغيير وتحوّل معنى النص وصيرورة تلقيه من قارئ إلى آخر.

التفت الجاحظ إلى قضية الانتحال في كلام الأدباء والابتداء بعرضهم في قوله: « فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة وتنسب في هذا الأدب، فإن قرضت قصيدة أو خبرت خطبة أو ألفت رسالة فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك أن تنتحله وتدعيه ولكن أعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب، فإن رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدج إليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله»[1].

إن فنون الأدب كانت أجناسا تجمع ضروب (الشعر، الخطاب، والرسائل) حيث دعمت هذه الفكرة بما أضافه « المبرّد» أنّ هذه الضروب من الآداب تجمع بين « كلام منثور وشعر مرصوف، ومثل سائر وموعظة[*] بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة »[2] على أن يكون هذا الكتاب يجمع شتات كل ضروب الأدب والفن من نثر وشعر وموعظة بالغة وراقية وخطب ورسائل مأثورة. هذا التنوع في الأدب نجده في محتوى موضوع الثقلاء، فقد أتحف المؤلف « جلال الدين السيوطي» بكل ضروب الأدب من مثل سائر، وشعر مقفّى ومواعظ تذعن بها النفوس الضاغنة التي تشكو باستمرار عن صفات الثقيل البغيضة التي تترك الأحاسيس تنفجر كالبركان عند مجالسة الثقيل أو محادثته وحتى بمجرد التأمل في هيئته، وهذه العينات من رسالة «إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء» يبين فيها المؤلف معانيها بأساليب حجاجية متنوعة، بوسائل لغوية أدبية كالشعر والحكم والأمثال التي تقال عن الثقيل وذكر بعض الطرف والنكت التي جمعت في حلة أدبية تصورها صور بيانية راقية وهي:

العينة 1: «وقال بشار العقيلي في ثقيل، يكنّى أبا عمران:

1- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت 1990، ص 203.

*- المثل تعني عبارة، موعظة محتوى والخطبة مقام.

2- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، بحث في السردية العربية، ص 60.

يرى الجاحظ أن الأنواع الداخلية بين النثر والشعر يكون التمييز بينها بمقومين من مقومات التصنيف هما: الشكل، وهو يظهر في الإشارة إلى المزدوج والمنثور، والمقام يظهر في الإشارة إلى الخطبة والرسالة، وقد عدّ في الشكل عنصر الايقاع، وفي المقام عنصر التواصل، ينظر محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 61.

ربما يثقل الجليــس وإن كـــا ن خفيفا في كفّة المـــيزان

ولقد قلت إذ علــى القـــــو م ثقيل يربي على الثقــلان

كيف لا تحمل الأمانـة أرض حملت فوقها أبا عمـــران»[1]

أما عن الأخبار التي وردت على شكل خطب ورسائل مأثورة نجد:

العينة 2: وفي « التذكرة»المذكورة: وقال الشيخ جمال الدين أبو الربيع سليمان بن محمد بن سليمان بن علي بن شبيل النحوي: أخبرني الأديب أبو عبد الله الإسحاقي، قال: كنت يوما عند الأديب أبي بكر بن أحمد العبيدي، وقد دخل عليه جماعة وأطالوا القعود عنده، فأملى علي:

من مجيري من الجبال الرواسي شغلوني وضيقوا أنفاسي

أنسوني بالقرب منهم وما الوحـ شة إلا من ذلك الإيناس

وقال البهاء زهير:

كلما قلنا خلونا جاءنا الشيخ الإمام

فاعترانا كلنا منـ ــه انقباض واحتشام[2]

العينة 3: « حدثنا محمد بن عمر أن بن زياد الضبي، عن أبي عبد الله الطوال، عن الأصمعي قال، قال ابن أبي طرفة: مجالسة الثقيل حمى الروح (باطنة).

حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، قال: كنت جالسا مع سماك بن الفضل في مجلس بصنعاء، فدخل عليه ختن له فقال: يا معمر تعالى حتى نعد كل ثقيل بصنعاء وعده بعدهم»[3].

1-3-عملية إسناد الخبر:

إن موقع الخبر متعلق بالصيغة الكلامية، وهي علاقة الكلام بالمتلفظ، وكان الحديث عن السرد قديما مقابلا للعرض، حيث أن وجود الصيغة السردية مرتبطة بإرسال شيء هو على مسافة

1- جلال الدين السيوطي، اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص29-30.

2- المصدر نفسه، ص 43، 44

3- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 62

مرسله، هذه المسافة قد تكون زمنية، أي يخبر عن شيء انتهى وتم وقد تكون مسافة مكانية إذ يخبر عن شيء لا يرتبط بقائله[1].

تتمثل وظيفة السند في أخبار الثقلاء في العمل على إضاءة الغموض الحاصل في متن لحديث، حيث يقوم علة ذكر صاحب القول أو الحديث، بذلك تتم مراحل السند في ثلاث مناطق حسب « محمد القاضي» وهي التي يتوزع عليها الرواة وهي « اثنتان في الظل وأخرى في الضوء» فعد « منطقة الضوء هي الوسطى فيها تظهر شخصيات معروفة لا شك في وجودها تاريخيا، ومن هذه الشخصيات نجد منهم: « أبو عبيدة وهشام بن الكلبي، وحماد الراوية، والمدائني...»»[2].

إذا توقف السند عند هؤلاء الرواة يصير الخبر بسيطا، حدث في زمن التلفظ بذلك الخبر، وإذا لم يقف عندهم فلا بد أن يمتد إلى رواة آخرين ومنهم ممن سمع أو كان شاهدا على ذلك الخبر أو الحادثة (الحدث)، أو يكون عنصرا مركزيا من تلك العناصر المشاركة في ذلك الخبر، وبهذه المراحل التي ذكرها « محمد القاضي»« ضلّ ضوء فضلّ» هو ما يساعد القارئ على إيجاد مسالك الخيط التي يستعين بها، ويتخذها لتوظيف تلك الأسانيد للوصول إلى الفهم والقراءة التي تجره إلى تأويل الأخبار ثم الإقناع بها، وليتم الإفهام لا بد من« فهم المنزلة التي تحتلها في حركة الأدب العربي القديم كلّه»[3].

أما في سرد الأخبار في فترة « ابن المرزبان» فكان يجري وفق التواتر والتوالد الأفقي للحكاية أو القصة التي تنوقلت من راو إلى آخر، عبر أزمنة وأمكنة حدوث تلك الأخبار وتتابعها ليشكّل متنا حكائيا مركّبا، كما نجد في الخبر الآتي: « حدّثنا أبو محمد، حدثني جعفر بن يعقوب حدثني أحمد بن ابراهيم عن جعفر الأحمر، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيّ، قال: عيادة حمقى القرّاء أشدّ على أهل المريض من مرض مريضهم، يعودونه في غير وقت عيادة ويطيلون الجلوس».[4]

1- ينظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 388

2- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 388.

3- المرجع نفسه، ص 339

4- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 66

تقوم الأسانيد في الخطاب السّردي على توضيح فحوى الأخبار ومعانيها، ذلك ما يفسح المجال للتأويل، وهذا التتابع في الأحداث بذكر أسماء الشخصيات المعروفة خاصة في فتوحات العصر الإسلامي التي تضفي على القارئ التعرف وتضعيف السامع والتأثير فيه بذكر شواهد من « القرآن العظيم» والأحاديث النبوية، وذلك ما نجده طاغيا في رسالة العالم « أبو الفضل جلال الدّين السّيوطي» ينقل الخبر إلى القارئ بطريقة ملتوية داعية في بعض الأحيان إلى الضحك والإمتاع في سرده، وغايته في ذلك هي إصلاح أخلاق الثقيل بذكر صفاته، بطريقة غير مباشرة بذكر نوادر وملح، وطرف بعضهم، فنجد على نحو مجموعة هذه الأخبار.

«في خبر رُوي عن ابن أبي يحي حيث قال: « كنا نأتي ابن أبي عتيق نعرض عليه، فربما غمض عينيه فنقف، فيقول مالكم؟ فنقول: أنعست؟ فيقول: لا ولكن مرّ بإنسان ثقيل فاستثقلته فغمضت عيني.

وقيل لجالينوس: بم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال: لأن الرجل الثقيل إنما ثقله على القلب دون الجوارح، والحمل الثقيل يستعين فيه القلب بالجوارح»[1].

نلاحظ في معظم هذه الأخبار التي رويت عن (الثقلاء) أنها تحمل في تركيبها الاستطراد يهدف الوصول إلى المعنى بطريقة مشوّقة وممتعة، كما أن هناك أسلوب الإطناب بهدف إغراء المتلقي لقبول الرأي والاستجابة أو الامتناع في آخر كل محاورة، وهذه عيّنة حيث يوجد هذا المسلك في إلقاء الأخبار في ما يأتي:

1. «وقال آخر:

وثقيل قال صفني قلت يا ثقيل الجبال

قال: هل أثقل منّي قلت ذا عين المحال»[2]

2. «وقال "دُرُست" البغدادي الشاعر:

لي جبران ثقال كلهم وإذا خفوا فهم مثل الرّصاص

قلت لما قيل لي قد غضبوا غضب الخيل على اللّجم الدلاّص

3. وقال البهاء زهير في ثقيل، أورده اليغموري في « تذكرته »:

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 24، 28

2- المصدر نفسه، ص 48.

بحـــــق الله متعنـــــــي من وجهك بالبعد

فما أشوقني منك إلى الـ هجران والصّـــد

فمـــا تصلـــح للـــهزل ولا تصلح للـــجدّ

وماذا فيـــك مـــن ثقـــل وماذا فيك من برد

ولا صبّحـــت بـــالخيـــر وما مسّيت بالسّعـد»[1]

ولقد وردت مثل هذه الأخبار في سلسلة فوائد وأحاديث شريفة فمنها فوائد إصلاح سلوك بعض البشر في المعاملة مع الآخرين، كحفظ اللسان وكتمان السر وعدم الكلام فيما لا يعنيك وعن صفات البشر البغيضة وهي:[2]

حين يجعل المرء مبغضا من الناس ثقيلا عليهم، فإن الناس لا تحب من يدس أنفه في خصوصيتهم، فيكون ثقيلا عليهم، ولا يحتملون مجالسته، ولا ينصتون إلى حديثه، وفي هذه المناسبة قال المأمون يوما لجلسائه: صار الثقيل على القلب من الحمل الثقيل فلم يجب منهم أحد: وقالوا: أمير المؤمنين أعلم، فقال لأنّه يجتمع في الحمل الثقيل الروح والبدن والثقيل تنفرد به الروح (ورد في كتاب ذم الثقلاء)

قال الأعمش: من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء، ونقش على خاتمه يا مقيت أبرمت فقم فإذا استثقل جليسا ناوله إياه، وربما أنشد:

وما الفيل تحمله ميتا بأثقل من بعض جلاسنا.

وقال له رجل: مم عمشت؟ فقال: من النظر إلى الثقلاء أمثالك.

« وقال زياد بن عبد الله، قيل للشافعي، هل يمرض الروح قال: نعم من ظل الثقلاء، قال: فمررت به يوما، وهو بين ثقيلين، فقلت: كيف الروح؟ فقال في النزع؟»

تتم عملية التخاطب عند علماء اللغة المحدثين بوجود الفعل الكلامي الذي يتحول إلى فعل الإنجاز و« تتحقق القوة الإنجازية حسب مقتضى الحال لأنه لا يمكن وصفه بالصدق أو الكذب فقد يكون

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 41-43

2- بدر عبد الحميد هميسه، فوائد من حديث/ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعني، دت، مقال في سلسلة أحاديث وفوائد، الموقع: http//saaid.net/hamsabadr/htm

فعلا انجازيا ناجحا أو مخفقا أو إذا كان يستجيب لمقتضى الحال من عدم الاستجابة»[1] فقد قسم « سيرل» الأفعال الكلامية إلى قسمين هما: الأفعال التي لها دلالات حرفية لقول ما وأفعال ذات دلالة غير حرفية لفهم ملفوظ ما، وتتم عملية فهم الأقوال حسب «سيرل» في أربعة مراحل:

انجاز فعل القول، ثم تأتي مرحلة الإسناد، أي الفعل الذي يربط العلاقة بين متكلم 1 ومتكلم 2 ثم مرحلة إنجاز القصد من القول وتنفيذه، وفي الأخير وجود فعل التأثير وهو الذي يترك أثرا في ذهن المتلقي لتتم عملية الفهم، وانتقال الدلالة الحرفية إلى متلقي وهي الدلالة الاستلزامية التي تتحقق بدورها عنده بشرطين هما: القدرة على معرفة الخلفية الفكرية المعرفية للمتخاطبين، والمرور بحوالي عشر عمليّات استدلالية لدى المتلقي.

يتم الفهم الشامل بالقدرة الثانية التي يتم فيها اشتغال الذهن بعملية استدلالية أثناء عملية التواصل وبذلك تبنى مقاصد الخبر في إخبار الثقلاء على التوافق الضمني بين المروي له، وذلك لإظهار نسق الأفكار والمعارف العامة المشتركة بين المخاطب والمتلقي، وهي مقاصد بنيت بالدرجة الأولى على خطاب السارد كونه يعمل على حصول تلك المقاصد، وذلك حين « يلجأ إلى الإضمار فيعمد بعدها إلى التصريح بجميع الحجج التي تتبني عليها لوجود المعاني المطوية »[2].

إذ يكون التصريح بالحجج بمثابة إستراتيجية لدى المتكلم عند تعامله مع المخاطب أو المروي إلى الكشف عن مقاصد غير صريحة في بعض الأحيان، وهي سلطة يملكها المخاطب في تشكيل الحجج والأدلة، وعنصر فاعل في العملية التواصلية وذلك ما يحصل كثيرا في الحوار وبخاصة « السردي »، فحين يحقق المخاطب تواصله مع الآخرين والتأثير فيهم باستخدام اللعب اللّغوي، وكذا الاستدلالات والبراهين، ويكون بذلك قد حقق اقتناع المتلقي بما قيل له مثل هذه الأخبار:

1- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 28

2- سليم سعدلي، تشكلات السرد الساخر ومقاصده في المنام الكبير «لركن الدين الوهراني»، مذكرة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، تيزي وزو، 2012، ص 164.

«...ن أبي الحسن، قال، أتى شريك بن عبد الله رجل من أصحاب الحديث [يقال له: أبو سويد يسأله عن أطراف كانت معه، وكان ذلك في يوم صائف، وأكثر على شريك، وثقل عليه، فصاح شريك: يا جارية تعالي اسبلي الستر، وأخرجي الذباب، وأبا سويد.] » [1]

أخبرني أبو العباس المروزي قال: أنشدني إبراهيم بن إسحاق القرشي قال، أنشدني العتبي

أقطب حين لا ألقـــى خفيفـــا فلم تطب الحياة مع الثقيل

وحين أرى الخفيف قررت عينا به وأخذت في ذم الثقيل[2]

اهتم علماء الحديث بمختلف العبارات التي يصوغ بها الراوي عند أدائه خطاب الحديث واهتموا بمعناها اللغوي، كما اختلف المحدثين في معاني بعضها، وكذا اختلاف مجال استعمالها لذا حاول « محمد القاضي» وضع تصنيفا لها، الذي قد يؤدي إلى الخلط في استنتاج المعاني في بعض هذه الألفاظ وهذا التصنيف تمثل في: السماع والقراءة والإجازة والمكاتبة وأما في السماع فهو أن يكون عبارة الراوي مما سمع من المحدث، وتكون بلفظة «سمعت» و«حدثنا» و«أخبرنا» و«أنبأنا» وهي غالبا قليلة الاستعمال _ فإذا كان الراوي يقصد الراوية عن شخص آخر غير معروف _ يقول « قال الراوي» أو «سمعت »، أما عن عبارتا « قال» و«عن» فإن عبارة «قال» عند بعض علماء الحديث تعتمد على ما عرف به الراوي، وهو أن يسعى بذلك القراء إلى فهم النص بما هو خارج النص، فيقول بهذا الخطيب البغدادي: « ما يقول المحدث عبارة « قال فلان» فإن كان المعروف من حاله أنه لا يروي إلا ما سمعه جعل ذلك بمنزلة ما يقول فيه غيره «حدثنا» وإن كان قد يروي سماعا وغير سماع لم يحتج من رواياته، إلاّ بُيّن الخبر فيه »[3].

أما لفظة «عن» كأن يقول (حدثنا فلان عن فلان) فهي تدل على وجود فجوة في عملية إسناد الخبر إلى قائله، وذلك بسقوط حلقة من حلقاته المتوارية « فإن قال الراوي (قال قائل)(حدثنا أو أخبرنا فلان عن فلان)، ولم يقل (حدثنا فلان أن فلانا حدثه) ولا يقوم مقام هذا من الألفاظ إحتُمل أن يكون بين فلان الذي حدّثه وبين فلان الثاني رجل آخر لم يسمّه...»[4].

نجد هذه الطريقة في تواتر الأخبار في كتاب ابن المرزبان:

---

1 – ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص67.

2 – المصدر نفسه، ص72.

3– الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ص 289، نقلا عن محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 244.

4– محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 245.

حدثنا أبو بكر العامري، حدثنا سعيد بن أبي داود، حدثنا شيخ يقال له إسحاق، كان بعين زربة عن رجل عن الحسن، قال: خرج موسى يستسقي فلم يُسق، فقال: يا ربّ خرجت مع بني اسرائيل أستسقيك فلم تسقنا فأوحى الله إليه: أنه كان فيهم عبد أبغضه قال، قال: من هو يا ربّ حتى أبغضه كما أبغضته؟ قال: يا موسى أنا أبغض التباغض من خلقي فكيف أخبرك؟».

حدثنا أبو محمد، حدثنا عمر الصامت، حدثنا يونس، حدثنا حماد عن قتادة أن رجلا قعد وسط الحلقة فقال لحذيفه: إن فلانا أباك قد مات، قال، وأنت أحق على الله أن يميتك، سمعت رسول الله (ﷺ) يلعن الجالس وسط الحلقة.

«حدثنا عبد الله بن عبيد القرشي، قال، حدثني محمد بن قدامه، قال، سمعت أبا أسامة يقول: سمعت هشام بن عرورة يقول لرجل: لأنت أثقل من الزواقي»[1] تكون هذه الأخبار متتابعة ومتتالية وفق منهج تداولي لهدف الوصول إلى المغزى الكلي من إلقاءها على السامعين، فلا يتم «الإقتناع بالخبر السردي لدى المستمع إلا بعد مطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبه باعتباره دليلا وحجة مادية تنسحب على المتكلم وتزكي موقفه »[(2)]. أي يقوم المخاطب بتقديم تلك الأخبار على أنها من الواقع، وتكون صورة حقيقية عن الثقيل، وبمشاهد من تلك الحكايات، فتكون ملموسة كأن يكون المتلقي يراها وشاهدا عليها.

تتراوح أشكال الخبر في أخبار الثقلاء بين الطويلة والقصيرة، وهي عبارة عن أشكال سردية محضة، وتكون مؤطرة برواة وناقلين للأخبار في سلسلة إخبارية (كالعنعنة)، لتشكل حلقة وهو ما يطلق عليه بـ « دورة التخاطب» أي يأتي الخبر منقولا أو مرويا من الراوي مباشرة، وقد يصبح الناقل راويا والراوي ناقلا في آن معا، فإذا كان الراوي بينا في إسناد خبر معين في صيغة: حدثنا _ أخبرنا _ أنبأنا _ أو يكون خفيا (مجهولا) على نحو (قال فلان أو روى فلان....)، إذ يمكن أن يكون لرواة عبارة عن مجموعة شخصيات مركزية تتواتر أخبارها من فلان إلى فلان فالخبر يقال من طرف شخص، أي تكون

1- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 52-54-55.

2- ينظر: عبد السلام عشر، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآلية التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، ط 1، الدار البيضاء، 2006، ص 134

الذات هنا هي المتحدثة، أو هو « مقولة الصوت» كما يسميها جيرار جنيت[1]. هذه الأشكال السردية تتباين في بلوغ المعنى حسب ورود راو ناقل أو الذي يتحدث (صاحب الحديث).

2-تقنية القصّ

2-1-خصائصه في خطاب الخبر

ينبني فن القصّ على خاصية معينة وهي كيفية إنتاج الفعل القصصي في أساليب عدة كانت العرب تتناقل فيما بينها الأخبار الشفاهية منها والمكتوبة، إذ يوجد فئة من المؤرخين فعلت الأخبار لتدل على ما في بطون مختلف الكتب التي تحوي قصصا وأسمارا، ونكتا ونوادر فالإخباري عند العرب هو "القاص"، وهذا ما يؤكده قول "عزة الغنام" على أنّ «الخبر أو الإخبار هو فن قصصي بامتياز، وأن القدماء استعملوا الأول للإدلال به على ما يرتبط بالقص»[2] للحديث تقنية خاصة في تناقله وروايته فهو يسلك ثلاث خاصيات أساسية ذكرها سعيد جبار تمثلت في[3]:

1-التواصلية: إن الحديث من كونه خطابا تواصليا يحمل رسالة معرفية من مرسل إلى متلق، في غياب أحد العنصرين يصبح الحديث بلا قيمة، لذا يكون المتلقي فعليا، ويكون مجردا إذ يتحدد في طائفة معينة التي يوجه إليها الخطاب.

2- المجلسية: يستدعي المجلس التواصل في طابعه الشفوي، حيث يمثل المجلس الفضاء التواصلي بين المحدث والجمهور، وقد اتخذت هذه المجالس في البداية طابعا دينيا، فجعلت من زوايا المساجد بعد الصلاة فضاءاتها الخاصة، ثم تحولت بعد ذلك لتنتقل إلى خارج المساجد ويركز نظام المجلس على توجيه الثقافة العربية إلى مستوى متميز هو مستوى الخطاب الديني، أو مستويات أخرى مختلفة، أمثال الخطاب القصصي والحكائي والوعظي.

3-المناقلة في الأخبار: وهي العنصر الأساس في تثبيت القول ومصداقيته بحيث تضمن له الانتشار بين الناس واستمراره قبل العصور الزمنية.

1- جيرار جنيت، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون، منشورات الاختلاف، ط 3، الجزائر 2003، ص 228

2- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص37.

3- م.ن، ص25.

من وجوه الحديث المختلفة التي أشار إليها ابن وهب في تمييزه منها بين: الجد والهزل السخيف والجزل، الحسن والقبيح، الخطأ والصواب، الصدق والكذب، النافع والضار، الحق والباطل، الناقص والتام... البليغ والعي[1].ومنه هذا الخبر:

«حدثني عبد الله بن نصر، حدثني ابراهيم، حدثنا عبيد الله بمن عمر، قال يحي بن سعيد لرجل: لأن تضربني ضربة بالسوط أحبّ إليّ من أن تسألني عن حديث، ولقد جاءه رجل مرّة يستثقله فقال لي: من بالباب؟ فقلت: فلان، فصكّ رأسه بأصابع يديه كلّها، وقال: يا أبا سعيد جبل، جبل فلما انصرفت مررت بالرجل، وهو جالس على الباب، فلا أدري إن أذن له أم لا»[2]

نقدم من خلال هذا التنويع في أصناف الكلام، الذي اقترحه ابن وهب مخططا مبسطا كالآتي: [3]

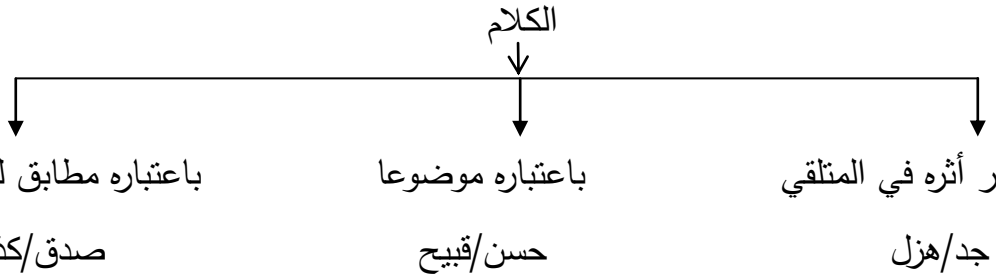

تتعدد صيغ الأداء في (أخبار الثقلاء) التي تحيل على الثقافة العربية القديمة، يظهر ذلك من جانب ورود الكلام الصيغي، وما نصادفه في الأفعال المسندة في القول أو الخبر وهي: (حدث- اخبر- قال- أنشد) بحيث انشد يرتبط غالبا بالشعر (الموسيقي والإيقاع). «وقال أبو بكر بن الأنباري في "أماليه": انشدنا محمد بن المرزبان (قال):

«إنّ نفسي اذا عتبت عليها كان عندي لها عذاب شديد.

أخبر: وهو تأسيسي في النص العربي حيث يحيل على "الخبر".

قال: يشمل الأفعال الأخرى التي تدل على فعل الخبر (الحدث).

وقال بعض الأندلسيين، وقال درست البغدادي»[4]

1- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص26.

2- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 70-71.

3- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص27.

4- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص39-41.

حدث: يحيل على "الحديث"، فالخبر يتعلق بما تم الإخبار به وانتهى، أما الحديث فيرتبط بنقله من شخص إلى آخر.

«حدثنا محمد بن اسحاق المدائني: حدثنا سليمان بن أبي شيخ، حدثنا سليمان بن أبي شيخ، حدثنا أبو الصغدي الحارثي، قال: أتيت عوانة بعدما كفّ بصره، فسلمت عليه، وسألت به، ثم قلت: إن الله لم يسلب عبدا شيئا الا عوضه مكانه شيئا هو خير منه فما الذي عوّضك من بصرك؟ قال: الطويل العريض: ألاّ أراك، ولا تقع عيني عليك»[1]

يشير أبو الهلال العسكري أن الحديث سمي حديثا لأنّه لا تقدم له، إنما هو شيء حدث لك فحدثت به وأصل الخبر بالنسبة له، «أن يكون الإخبار به عن غيرك«[2].

نأخذ عينة من (أخبار الثقلاء) التي تظهر فيها هذه التقنية في الإخبار:

تحمل هذه الأخبار في مضمونها طابعا سرديا لإظهار طبيعة الفعل السردي ونوعه الذي يشكلها، فإن الدراسات التي أقيمت دعت الى الكشف عن المميزات الخطابية للخطاب الروائي، الذي لا يعدو أن يكون نوعا سرديا مركبا، تطور هو الآخر عن أشكال سردية بسيطة كالخبر، لذلك لابد أن نأخذ بعين الاعتبار الأدوات الإجرائية المستعملة لتحليل الخطاب الروائي بمراعاة طبيعة المتن الذي تشتغل به، والتي ستفرض عليه المنهج المطبق، فالخطاب يحتاج الى لسانيات غير لسانيات الجملة، كما ذهب "رولان بارث" وما يسمى بلسانيات الخطاب، التي تدرس الخطاب السردي بحيث تتفرع عنه نصوص الأشعار، والحكاية وأصبح يعرف الآن بـ (السرديات Narratologie) الذي يهتم بالخطاب السردي في مستوياته المختلفة، إذ عدّ رواد السرديات الخطاب جملة كبرى، التي تجمع مجموعة مقومات ذاتية تميزها في زمن من الحدث، وعلاقتها بمرسلها[3].

وهذا ما أدّى بدارسي لسانيات الخطاب إلى مقاربة الخطاب الخبري، وتحول المقولات الجملية إلى مقولات خطابية تركز على المقولات السردية وهي عند سعيد جبار[4]: مقاربة الزمن

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص56.

2- أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، تح: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الثقافة الجديدة، ط5، بيروت، 1983، ص32.

3- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص115.

4- م.ن، ص116.

في الخطاب أي زمن الخطاب- الصيغة التي تعالج العلاقة بين خطاب الملفوظ وخطاب التلفظ- طبيعة الحدث ان كان واحد أو متعددا، بسيط أو مركبا- الفاعل: وهي مقولة الفاعل، اذا كانت مرتبطة بالسارد وسيرورة السرد والرؤية السردية لهذه المقولات دور في بناء طبيعة البنيات السردية في أي خطاب حكائي، فهي تبين أن الفعل السردي مرتبط بالبنية الزمنية في النص السردي فالزمن أحد مقومات الفعل، سواء في الجملة أو في الخطاب، أما الفعل الحكائي فهو مركز الحدث الذي يتميز بالبساطة، وبالنسبة للحدث الحكائي فهو مركب يحتاج لعناصر أخرى، مقارنة بالحدث الخبري، أي توجد عناصر لا نجدها في الخبر، فكون الخطاب الحكائي متنوع الأحداث وبالتالي يتميز بالتنويع الخطابي، ويؤطر هذا التنويع في الغالب صوت الناظم الخارجي[1].

2-2-الآليات البلاغية للخبر

إنّ كل ظاهرة لها اطار معين يحدد غايتها، وهذا الاطار عام يميّزها من الظواهر الأخرى حيث كان لـ "أمبرطوايكو" التفاتة نقدية حول الأطر وقد حدد مفهومها من حيث فاعليتها في ضبط التأويل بقوله: «الأطر لا تسمح لنا فقط بتأسيس مدار الحديث، وإنّما تحدّد مساره وغايته ووجهة النظر التي يتبناها»[2].

تصاغ الأدوات اللغوية البلاغية عند القدامى بتقديم تصنيف ضروب الآداب، أشار محمد القاضي الى أن الحديث عند العرب هو إدراج تلك الضروب بعضها بعضا لتضع نوعا يندرج ضمن جنس الخبر، فقد تحدث «ابن المعتز» عن «السيد الحميري» ويصفه بأنّه «كان أحذق النّاس بسوغ الأحاديث والأخبار والمناقب في الشعر»[3].

من ضروب الآداب الحديث والخبر والمنقبة وهي عناصر تدخل في حيّز الشعر، والجاحظ تحدث بالمقابل عن غايات النحويين ورواة الأشعار والأخبار حديثا يشف اندراج الشعر في الخبر

1- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص125-129.

2- محمد مفتاح، مجهول البين، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1990، ص109.

3- عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبد الستار فراج، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1981، ص32.

إذ قال: «ولم أرغاية النحويين إلاّ كلّ شعر فيه إعراب، ولم أرغاية رواة الأشعار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل»[1].

ومن ذلك ما يأتي:

قال رجل لبعض المغنين في مشاجرة جرت بينهما: والله ما تعرف الثقيل الأول ولا الثقيل الثاني فقال: كيف لا أعرفهما وأنا أعرفك وأعرف أباك ! ألمّ بهذا بعض الشعراء، فقال:[2]

ألا يا ثقيل الرّوح وابن ثقيـــلة أرى الثّقل طبعا في أبيك وفيكا

أبوك إمام الناس في الثقل كلهم وأنت ولـيّ العهد بعـــد أبكيا

وقال آخر:

إنّ الثقيل وإن تخفّف جـــــهده كان الثّقيل علـــى الفؤاد ثقيلاً

كان استعمال كلمة "تأطير" في السرود العربية وسيلة بلاغية، وأنّ التأطير شكل «يستعمل المبدأ نفسه دائما في العمل، إذ يبالغ في بعض المظاهر التي تستحق الوجود في الواقع ويقلّل من مظاهر أخرى في المقابل»[3].

يلاحظ في الرواية (تأطير) وهو بمثابة التعيين، ويعرف بالمشهد الاستهلالي في السرود العربية القديمة، إذ نجد المشهد الاستهلالي يتصدر متون كتاب (الثقلاء) والخواتم التي تمثل الحافز السردي الأصيل لإنتاج أو تأليف حكائي، يكون متواتر في السرود الفرعية، يشكل بها عملية الخلق لإطلاق الحكي والمعارف بين النّاس، ولكل رسالة أدبية أركان يتحتم بها النظر الى أدبية القص.

إنّ الاستهلال مكوّن من مكونات النسق الحكائي، فهو يحمل صيغا لغويا تبرز للقارئ أسلوبه التأثيري. يخلق التأطير صفة التشويق في المتلقي وبخاصة اذا كانت الحكاية المؤطرة تسلك مسلكا حكائيا متقنا، يقود إلى طرح أسئلة بعد أخرى، وبه يتم الوصول إلى الإقناع، لذلك يخلق الاستهلال عنصرا إستقباليا، وهو الإطار الذي ينظم عملية السرد والتلقي معا.

1- الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، تح: محمد أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الهلال، ط7، بيروت، 1992، ص24.

2-جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 48.

3- يمينة تابتي، الحجاج في رسائل (ابن عباد الرندي) "دراسة تداولية"، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2007، ص71.

تحتفظ الحكاية الإطار ببنيتها السردية البسيطة، التي تقوم على تكثيف الأحداث ثم تحريكها بسرعة نحو نهايتها دون الخوض في تفاصيلها ويقوم الإمتداد البنيوي في النصوص التراثية لاسيما ما نجده في مصنف "ألف ليلة وليلة" «على التحولات السردية التي استحدثتها "شهرزاد" كصوت سردي من درجة ثانية، "ناظم داخلي" أنها تتحول من شخصية فاعلة في الحكاية الاطار إلى ساردة لمجموعة من الحكايات الداخلية المؤطرة يكون فيها المسرود له داخليا أيضا "شهرزاد" وأحيانا أخرى دنيازاد ويستدعي هذا السرد أحداثا من أزمنة متباينة وفضاءات متباعدة كما يستعدي في كل لحظة شخصيات جديدة، وهو سرد يقوم في الغالب على تداخل عوالم حكائية لا متجانسة تجمع بين الأليف والعجيب، مما يمنحها جمالية خاصة، ونسقا حكائيا دقيقا، يوهم بهذه التراتبية في الحكي، ويضمن لهذا التوالد تسلسله ومقروئيته الخطية المتتالية»[1].

إن الاستهلال هو أوّل شيء يبدأ به العمل السردي في الأجناس الأدبية كالحكاية والقصة والرواية و«هذا النوع هو أحد أركان البلاغة، وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان هذا الكلام فتحا ففتحا، وإن كان هناء فهناءا، وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به؟»[2].

هذه الافتتاحية في الكلام تبدأ بها أقوال الرّواة كما جاء ذلك في كتاب "ابن المرزبان":

«أنبأنا الشيخ أبو الحسن عليّ بن إبراهيم السّراج والشّيخ أبو عبد الله الحسين ابن عليّ النّجار وذلك في صفر، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بقراءتي عليهما، وغيرهما قالوا: «أنبأنا عبد الله... حدثنا أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، قال أنشدني... وكتب به الى المعتضد أمير المؤمنين وكان يؤدب ولده المكتفي...»[3].ذلك لتتبع المسار الاستدلالي للخبر، ليتم به إفهام المستمعين الذي يتشكل منه بلاغة الخطاب لدى متلقي ذلك الخبر

1- سعيد جبار، التوالد السردي، قراءة في بعض انساق النص التراثي، ص85.

2- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر، جزء المبادئ والافتتاحات، ج3، قدمه وعلق عليه احمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، دت، ص96.

3- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص47-48.

2-2-1-بلاغة الاستعارة والتشبيه

• **بلاغة الاستعارة:** إن بلاغة الاستعارة «لا تتعدى بلاغة التشبيه من ناحية تأليف ألفاظ التشبيه وابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان لا يجول إلا في نفس أديب، وهب الله له استعدادا سليما في تعريف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء، وأودعه قدرة على ربط المعاني وتوليد بعضها من بعض إلى مدى بعيد لا ينتهي»[1].

يمكن الاستدلال على بلاغة الاستعارة بما يأتي:[2]

ما أظن القلاص منجيتي منك ولا الفلك أيّها الرّجل

ألايا (جبل المقت) الذي أرسى فمـــــا يبرح.

القلاص هو جمع قلوص، وهي الفتية من النّياق، وجبل المقت هي إشارة حسّية وهي استعارة تخيلية لأن الجبل هو المستعار له في الصورة.

شغلت الاستعارة حيّزا كبيرا في تفكير "ايكو" وهي عنده موضوع مهمّ فلسفي ولساني وجمالي ونفسي، إنّ «الاستعارة تشير الى الصور البلاغية»[3] لكونها جنسا وتلك المجازات الأخرى أنواعا، فالاستعارة عند "ايكو" «لا تقيم تماثلا بين المرجعيات التي تحيل عليها المستعار منه والمستعار له، بل يشتمل بالدرجة الأولى على سمتين أو خاصيتين دلاليتين في طرفي الاستعارة»[4].

وضع عبد القاهر الجرجاني في نظريته حول النظم جانب في الاستعارة، حيث أخذ بجانبين في تحديد موضعها في الحجاج وأساليبه فتأثر بعاملين هما[5]:

الأول- أساليب الحجاج: كالرد على أقاويل المعترض وعلى شبه تأويله، وكالتوجيه إلى المخاطب وافتراض علمه واقتناعه بما يلقى إليه.

1- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتحقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، 2002، ص284.

2- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص31.

3- رشيد الإدريسي، سمياء التأويل الحريري بين العبارة والإشارة، ط1، المكتبة الأدبية شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2000، ص42.

4- رشيد الإدريسي، سمياء التأويل الحريري بين العبارة والإشارة، ص42.

5- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1989، ص309.

الثاني- الجهاز الحجاجي في المناظرة: وهو جهاز مفهومي متأصل في المجال التداولي الإسلامي العربي، فقد عمد الجرجاني إلى اقتباس عناصر مختلفة في تكوين تصوره للاستعارة، منه "الادعاء" و"الاثبات" و"التقرير"، "السؤال" و"الاعتراض" و"المعارضة" و"الدليل" و"الشاهد" وّالاستدلال" و"القياس".

كما جعل الجرجاني مفهوم الإدعاء أدائه الاجرائية التي تقوم بوصف اشتغال الاستعارة في الخطاب في المجال البلاغي ونقله الى أوصافه، التي هي ثلاث أصلية (التقرير، التحقيق، التدليل).

مثل ذكر أوصاف الجبل الذي يرسى على الأرض بأوصاف الإنسان الثقيل، كما أن بلاغة الاستعارة في تنوعها وثرائها، ومنها الاستعارة العنادية التي تكون تلميحية في الكلام البلاغي، وقد تكون تهكمية والمقصود منها التهكم والاستهزاء من شخص وهو «أنّ اللفظ يكون ضد معناه نحو رأيت أسدا تريد به شخصا جبانا»[1]، فالسخرية والتهكم في نصوص (أخبار الثقلاء) هما اللذان نزل فيهما التضاد منزلة التناسب نحو «فبشرهم بعذاب أليم»، استعيرت البشارة لتؤكد على الخبر السّار للإنذار وذلك بإدخال جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء[2].

وهذه أمثلة وردت بأسلوب ساخر تهكمي من كتاب "ذم الثقلاء".

قال: انشدني الأدمي، قال: انشدنا ابن المرزبان، قال: انشدنا أبو بكر القريشي:

انهضوا، فإن أبى يا جلسائي فانهضوا

زبـدة البغض لـــه في فؤادي تمخض.

أنشدني الأدمي قال: أنشدني ابن المرزبان قال: أنشدني احمد بن علي:

أنـــت والله ثقيـــل وأنـــا أيضا ثقيل

لك رأس فيه بوستين ولي عقب طويل.

«قال: أخبرني... محمد عن الحرمازي، عن مجالد عن الشعبي أنه كان قاعدا في مجلس فأقبل رجل، فلما رآه قام، وقال: ثقيل والله[3]».«والعقب الطويل بمعنى كثرة الأولاد، كان يقول الشاعر في ذلك البيت لممدوحه: أنا أطلب رفدك وعطاءك لأولادي الكثيرين، فاثقل بطلبي عليك،

1- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص267.

2- م.ن، ص267.

3- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص65-69.

وأنت لا تفهم، لان دماغك من جلد غليظ كأنه البوستين فتثقل عليّ»: تهميش كتاب (ذم الثقلاء) ص70.حيث يخاطب احمد بن علي ممدوحه بأسلوب غير مباشر، ويريد أن يصفه بثقيل، لأنه لا يفهم شيئا من كلامه، ما دع ابه إلى حفظ ماء وجه مستمعه.

إن صفات الثقيل تبنى على زحم كبير من الاستعارات التي تمكن المخاطب من أن يعبّر عنها لوصول الفكرة إلى أذهان المستمعين، فبهذه الاستعارات يجلب انتباه القارئ ويؤثر فيه ويمنعه، إنها بلاغة الإمتاع والإقناع في آن معا، فقد جرى العرب والمحدثون على أن يشبهوا بصفات حميدة، فيشبهون مثلا: «الوفي بالسموأل، والكريم بحاتم، والعادل بعمرو، والحليم بالأحنف والفصيح بسبحان، والخطيب بقيس، والشجاع بعمرو بن مهد، والحكيم بلقمان، أما إذا شبّهوا بالصفات الذميمة، فيصيغون أسماءهم حسب صفاتهم كأن يشبهوا العيّ "بباقل" والأحمق بـ "هبنقة"»[1].

- **بلاغة التشبيه:** تتمثل بلاغة التشبيه من حيث «الصورة الكلامية التي يوضع فيها، فأول التشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذكرت أركانه جميعها، ولأنّ بلاغة التشبيه مبنية على إدعاء أن المشبه عين المشبه به، ووجود الأداة ووجه الشبه معا يحولان دون هذا الإدعاء»[2].

التشبيه البليغ ما حذفت فيه الأداة أو وجه الشبه، فتكون درجة التشبيه عالية في البلاغة لأن حذف أحد هذين الطرفين يقوي الادعاء ويتحدد ذلك أن المشبه والمشبه به واحد.

يظهر التشبيه جليّا في خطابات وروايات (أخبار الثقلاء) وما ورد فيها من أبيات شعرية تجلب أسماع الحاضرين والقراء، من ذلك رسالة في "إتحاف النبلاء" التي ورد فيها ما يأتي.

«قال سيف الدين المشد:

وجاهل كالجبل الراسي أثقل من حمّى وإفلاس

وقال البهاء زهير:

كلّما قلنا خلونا جاءنا الشيخ الإمام

فاعترانا كلّنا منـ ـه انقباض واحتشام»[3]

1- احمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص249.

2- م.ن، ص246.

3- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 44- 45

وقال أيضا:

لي مجلس ما رمت فيه خلوة إلاّ أتـــاح الله كـل ثقيل

فكأنه قلبي لكـــــل صبــابة وكأنّه سمعي لكل عذول

وقال آخر:

أنــت يـــا هـذا ثقــيل وثقـــــيل وثقيـــل

أنت في المنظر إنـسا ن وفي المخبر فيل[1]

إن الأغراض البلاغية في تشبيهات (أخبار الثقلاء) تتمثل في إظهار صفات الثقيل «بالإفصاح والإبانة، فيمكن أن يعتبر الدهاء والمكر والنكراء والإكراه والمنازعة والإحتجاج والاضطرار بالحجة والتحريك»[2] كلّها من صفات الاضطرار حسب محمد العمري، إلاّ أنّ بعض الوسائل المستعملة للبيان محسوسة عند الجاحظ في أمر الغرض من بعض وسائل الإقناع مثل الفهم والبيان[3]، فهي وسائل موجهة للاستمالة أو الإضطرار فيكون التشبيه في بعض المقامات أداة للإقناع والتصديق والإبانة والوصف، في الأبيات المذكورة أعلاه يعمد الخطيب إلى استعمال عبارات قوية كافية، لأن تبلغ القصد عند المتلقي، فبمجرد أن يذكر فيل أو جبل أو مرض الحمى يمكن أن نفهم المعنى الأصلي وهو أن الثقيل يحمل صفات مشابهة لتلك الكلمات.

2-2-2- استراتيجية التخاطب في المستويات اللغوية

يتحول الخطاب بوصفه مكونا لغويا متنوعا باختلاف الوحدات اللغوية من نحو وصرف وبلاغة، وعملية الإنتقال من الدال الى المدلول، التي هي الأساس، وتتضمن الكفاءة اللغوية المتوفرة في ركني كل خطاب (المرسل والمرسل إليه)، في المستوى التركيبي لخطاب ما يوظفه المرسل لإبراز استراتيجية خطابية تداولية مناسبة، فقد وظف عبد القاهر الجرجاني (النظم من خلال التعبير عن القصد في أبواب التقديم والتأخير والحذف وما شاكله من معاني النحو، كما يوظف المرسل في استراتيجية خطابه مستوى التنغيم، إذ يكون البتر في كلمات الجمل معنى دلاليا

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 45-47.

2- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، افريقيا الشرق، بيروت، 1999، ص199.

3- م.ن، ص199.

وكل جملة إلا ولها معنى، والتنغيم له دور في تحديد السياق وإثارة انتباه المرسل إليه، وغايته من ذلك الخطاب كتقديم معلومة جديدة تكون مخالفة للمعلومة القديمة كما نجد ذلك في الخبر الآتي:

إنّ حق التأديب حق النبوّه عند أهل التقى، وأهل المروّه

حدثنا محمد بن إسحاق المدائني، حدثنا سليمان بن أبي شيخ، حدثنا أبو الصغدي الحارثي، قال: أتيت عوانة، بعدما كف بصره، فسلمت عليه، وسألت به، ثم قلت: إن الله لم يسلب عبدا شيئا إلا عوضه شيئا مكانه هو خير منه، فما الذي عوضه شيئا مكانه هو خير منه، فما الذي عوضك من ذهاب بصرك؟ قال: الطويل العريض: ألاّ أراك ولا تقع عيني عليك[1].

إنّ المرسل إذا تلفظ بجملة في خطابه يستفد إلى أكثر من علامة، ويمزج بينها ويحدها وفق سياق، «العلامات غير اللغوية التي تصحب اللغة الطبيعية"Panalangage"»[2] فهي تشكل على المستوى الصوتي (مستوى التنغيم)، كما أن هناك علامات أخرى مصاحبة لتشكيل الخطاب عند استعمال الإشارات كحكة أو الرأس، وهذه العلامات لها مقاصد تداولية تحمل معنى هاما لدى القارئ.

نجد هذا المزج بين العلامات اللغوية وغير اللغوية (الإشارات) في هذه العينة من الأخبار: قال أنشدني الحسن بين صالح البرتي للمكتب.

أما الحبيب فلا يمل حديثه وحديث من أبغضته مملول

وترى على وجه الحبيب بشاشة وعلى البغيض وخامة وخمول

«حدثنا أبو الفضل أحمد بن طيفور قال: حدثني عبد الرحمان بن عبد الله الخوارزمي (قال: لقيت شريك الله يوما بباب الكوخ–أيام المنصور–فقلت: يا أبا عبد الله حدّثني بحديث كذا وكذا فحدّثني، فقلتُ: يا أبا عبد الله آخر فقال بالفارسية، أنت ثقيل، ولو كنت ثقيلا في العيان كان هينا ولكن أنت ثقيل على القلب»[3].

1– ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص48–56.

2–عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2003 ص71–72.

3–ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 65–66.

«ونقش رجل على خاتمه أبرمت فقم، وكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه وقال: اقرأ ما في هذا الخاتم»[1].

من الوسائل اللغوية التي يستعين بها المخاطب أيضا ما يسمى بـ «الإحالة الكلامية»، إن هذه الوحدات الكلامية، « التي تستعمل في نصوص ووحدات كلامية، توازي بشكل عام ما يدعوه «بنفينست». «خطابا» أو « حديثا» وتقوم على علامات إشارية، أي علامات ترتبط بعلاقة تجاور مع « أنا»« الآن» و«هنا». وهي تتناول ثلاثة (الحاضر، الماضي، المضارع)[2]. إذ أن للخطاب مقاصد متعددة، وتتنوع بوجود أفعال لغوية، وذلك محكوم بما يقصده المخاطب، حيث يقوم بالموازنة بين الأشكال اللغوية والعناصر السياقية في تعبيره، وللخطاب معنيين معنى حرفي، وآخر تداولي، وهو التعبير عن المعنى غير المباشر، وهذا ما يمثّل إحدى استراتيجيات الخطاب ليعبّر بها المخاطب عن مراده في القول[3] إذ تتم عملية التخاطب بين شخصين لتحقيق هدف ما، وتكون الغاية مشتركة، كالإمتاع والتسلي بالأخبار وتكون العملية تراعي إستراتيجية معينة مقيدة بمبادئ الحوار (الأسئلة والأجوبة) أو المناظرة بين خصمين وإحداث المغالطة في الخطاب، وهذه المبادئ قد وضعها العلماء العرب في التراث من خلال التآليف المختصة بهذا الغرض، وكما يسهل اكتشافه من خلال ممارستهم وفرّقوا بين ما يسمى مناظرة، وجدلا، وذلك لبيان مراعاة التعاملات بين الناس أثناء المحادثات المختلفة أيا كان موضوع الحوار بل يجب اتباعها لإنجاحها، وهما ليسا فقط العنصرين المهمّين في التصنيف بل يجب أن نراعي قاعدة اللباقة بين المتناظرين، وهي الشروط التي تساعد في بلوغ الهدف. الذي يسعيان إلى تحقيقه، وهما مبدأين:

مبدأ التصديق في البحث التراثي، مبدأ التعاون في البحث المعاصر

فمبدأ التصديق عند "طه عبد الرحمان" يأخذ بأسباب التبليغ وأسباب التهذيب واستنبط منهما نوعين من القواعد: قواعد التواصل وقواعد التعامل، أما قاعدة التواصل فتمثلت عنده في القواعد

1-جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص29.

2- مريم فرانسيس، في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية)، منشورات وزارة الثقافة، ط1، دمشق، 1998، ص36.

3- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص78.

الدقيقة والتي قام بتفصيلها "الماوردي" في كتابه "أدب الدنيا والدين" وهو ما أسماه بشروط الكلام وهي أربعة[1].

- أن يكون ما يدعو إليه في اجتلاب نفع أو دفع ضرر.
- أن يأتي به في موضعه، ويتوفى به إصابة فرصته.
- أن يقتصر منه على الذي يتكلم به.

كما حدد لقواعد التعامل شروطا ثلاثة هي: قاعدة القصد، قاعدة الصدق، قاعدة الإخلاص.

من هذه الشروط الأربعة يتناسى شرط الاقتصار على قدر حاجته في الكلام، كما نجد في الأمثلة الآتية[2]:

1- «وفي تاريخ ابن النّجار على علي بن الفضيلبن عياض، أن رجلا سأله وقد كُفّ بصره كيف وجدت ذهاب بصرك؟ قال: أصبت راحتين عضّا عن محارم الله عزّ وجّل ولا أنظر إلى ثقيل».

2- «وقال أبو بكر الأنباري في أماليه» أنشدنا محمد بن المرزبان قال:

إن نفسي إذا عتبت عليـــــها كان عندي لها عذاب شديد

كان عندي لها جلوس إلى أث قل شخص على البلاد يرود

يوجد في هذه الخطابات خرق على مستوى قواعد التعامل، وهو يتمحور في قاعدة القصد وقاعدة الإخلاص، فلم تكن خطابات الرواة تسير في هذا المبدأ (مبدأ التعامل)، إذ يجب على المخاطب أن يحترم هذه القواعد، ونوع العلاقة الموجودة بينه وبين مخاطبه، وهو ما يرجع إليه المخاطب بإختياره لإستراتيجية، بغضّ النظر عن الإستراتيجيات الأخرى التي تتسم بهذه القواعد فقد يعمد إلى إستخدام ظواهر التفاعل الخطابي الذي تجسد علاقته بالمتلقي، وهو ما يسمى بظاهرة التأدب في الخطاب، وحفظ ماء الوجه، فقد حدّدت هذه الظاهرة عند "الشهري" في وظيفة المخاطب الذي "ينقل الفعل التلفظي من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي، ويغدو الخطاب عندها

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص94.

2- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص37-41.

مؤشر على كفاءته والقدرة على التكيف مع محيطه"[1] وهو ما يترتب على قاعدة القصد في هذه الخطابات بمراعاة أمرين[2]:

- أنها تصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي.
- إمكان الخروج على الدلالة الظاهرة للقول، إذ يجوز أن يتفاوت مقصود القول عن مضمونه، مما يلزم عنه دخول المرسل إليه في ممارسة العمل بمعرفة قصد المرسل.

أ-مبدأ التأدب في الخطاب:

حاز مبدأ التأدب إهتماما كبيرا من الباحثين اللغويين، فكانت "روبين لاكوف" قد قامت بنقد الدراسات اللغوية التي أقيمت، حيث قصروا الإهتمام بالمعيار التركيبي لوحده، ودعت إلى ضرورة الإهتمام بسياق التلفظ الذي يتم بها إيجاد إفتراضات منطقية وتداولية، إقترح هذا المبدأ ليتم إدراجه في القواعد التداولية التي تتحكم في وجود صياغة الخطاب من عدمه، وليتحقق نجاح هذا المبدأ وضعت قاعدتان تختصان بمفهومه هما.[3]

- أن تكون واضحا.
- أن تكون مؤدبا.

يكون للمرسل خيار لإحدى القاعدتين، إذ يتوجب عليه وضع تغيير في تصنيف خطابه بين الوضوح والتأدب، يسعى المرسل أن يكون واضحا، يتواصل مع الغير بطريقة مباشرة، أو يكون مؤدبا حين يكون خطابه يهدف إلى التعبير عما يراه في محاوره بأسلوب يلائم ظروف المقام.

يكون معيار الوضوح أيضا من أهم القواعد في عملية التخاطب بين شخصين. كما أدرجت "لاكوف" في إطار هذا المبدأ ثلاث قواعد تتفرع منه أطلقت عليها "قواعد الخطاب" التي يستعين بها المخاطب في أثناء المحادثة وهي[4]:

1-قاعدة التعفف: أي الإلحاح على فعل ما، وعدم التطفل على شؤون المرسل إليه.

1-عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص46.

2- م.ن، ص95.

3 - نفسه، ص99.

4- نفسه، ص100.

2-قاعدة التودد: وهي أن تظهر الودّ للمرسل إليه.

3-قاعدة التغيير: وهي أن تجعل المخاطب يتخذ قراره بنفسه.

هذه القواعد متبعة في خطابات (أخبار الثقلاء) وهي من الأساليب التعبيرية التي يتخذها المخاطب للتأثير في الآخر، والإستجابة بمشاركته ذلك الحديث، من هنا يمكن القول إنه يستوجب مراعاة شكل الخطاب من أمثلة إتباع قواعد "لاكوف" الخبرين الآتيين:

«حدثنا أبو محمد بن خلف بين المرزبان، قال، أنشدني ابن أبي الدنيا وكتب بها المعتضد أمير المؤمنين، وكان يؤدّب عليّ المكتفي:

إنّ حقّ الأنام أن يعرفوا ذا ك ويرعوه أهل بيت النبوة

يحاول المخاطب في هذه الخطابات أن لا يوجه كلامه إلى الثقيل مباشرة، بل أن يظهر له التودد بتهذيب الخطاب، فهو يختار بنفسه عبارته ويتخذ قراره ونظرته إلى الثقيل وكيف يجب التعامل معه إذا جالسك أو حاورك.

وهذا ما يظهر الربط بين شكل الخطاب في اللغة وعلاقته بمعناه، ويستلزم هذا الخطاب قصد المرسل الذي يتمظهر في خطابه، وبين شكل اللغة الدال على ذلك القصد، أي المعنى الذي يتخذه السياق التلفظي في الخطاب انطلاقا من شكل الخطاب اللغوي، وما يدل عليه بالنظر إلى الكفاءة اللغوية لدى المخاطب، إذ يكون إمّا مخبر أو طالبا في العملية الإخبارية، وهذا يدخل ضمن أفعال السلوكيات عند "سيرل". يقول في هذا الشأن: «إنّ التعرض لخواص الكلام موقوف على التعرض لتراكيب ضرورة، لكن لا يخفى عليك حال التعرض لها منتشرة، فيجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار (ويعني السابق في الاعتبار عند العرب شيئان): الخبر والطلب المنحصران بحكم الاستقراء في الأبواب الخمسة وما سوى ذلك على نتائج إجراء الكلام على الأصل»[1].

1-أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1987، ص163.

ب-مبدأ الوجه:

إن موضوع عملية التخاطب في وجهيه التعاملي والتواصلي، أخذ يشغل اهتمام الباحثين اللغويين في مختلف المجالات العلمية من منطقيين واجتماعيين ونفسيين[1] إذ لابد المتخاطبين من مراعاة قواعد التخاطب بينهم، لجلب محاورين بأسلوب يليق بمستوياتهم العلمية والأخلاقية والنفسية.

من أوجه التخاطب من جانبيه التعاملي، مبدأ الوجه، أدرجه "الشهري" ضمن مبدأ التأدب الأقصى، وهو وسيلة ناجعة في إفهام المخاطَب قصد المخاطب، فإن المخاطب يعوض التعبير باللسان التعبير بالوجه، وهو رمز الكفاءات التعبيرية لدى الناس، يقول "سعيد بن العاص": "قبح الله المعروف إن لم يكن ابتداء من غير مسألة ، فالمعروف عوض من مسؤولية الرجل، إذا بذل وجهه فقلبه خائف، وفرائضه ترعد وجبينه يرشح، لا يدري أيرجع بنجح الطلب أم بسوء المنقلب، قد انتفع لونه، وذهب دمّ وجهه"[2] .

يعمد المتحاورون في كتاب (ذمّ الثقلاء) في خطاباتهم الموجهة إلى الثقلاء لعدم إظهار إنكارهم وبغضهم للثقيل إلى استعمال مبدأ الوجه، فيتم الإفهام بإظهار ملامح الوجه الذي يعد رمز اللغة بديلا عن التعبير المباشر.

ارتكز هذا المبدأ حسب الشهري على عاملين[3]:

قيمة الوجه الاجتماعية ونسبة تهديد الوجه، إن قيمة الوجه الاجتماعية أن يصون المرسل وجه غيره بملامح ملائمة، اقترح الباحثان "براون" و"ليفنسون" في وصف هذا الوجه بأن رغبات الإنسان الأساسية في حفظ ماء الوجه ويقسمان الوجه قسمين[4]:

الوجه الدافع والوجه الجالب، الوجه الدافع هو رغبة الإنسان في ألاّ يعترض الآخرون على أفعاله، يمثل نسبة تهديد الوجه، العامل الثاني الذي يرتكز عليه مبدأ الوجه الذي ينص على ضمان الاحترام المتبادل، ليتم به إيراد الأفعال التي تهدد الوجه، وأثر كل صنف منها في ركني الخطاب، فمنها الأفعال

1- فتيحة بوسنة، إنسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، مقاربة تداولية، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012، ص62.

2-عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، ص103.

3-المرجع نفسه، ص ن.

4- نفسه، ص105.

التي تهدد الوجد السلبي وعلاقتها بالاثنين، وهي تلك التي تختص إظهار تعابير العواطف السالبة المتعلقة مثلا بحالات البغض والغمط لدى النبلاء إزاء الثقلاء ومن الأفعال التي يتوسل بها المخاطب لتهديد الوجه الجالب، تلك الأفعال التي تعبر بها بعدم اكتراث المخاطب بردة فعل متلقيه أو الحالة الشعورية من التعبير الموجه إليه، الأفعال التي تهدد وجهه الجالب لتلك الأحكام والتقييمات السلبية من جراء تصرفات أو سلوك المرسل إليه، هي تلك الأساليب اللغوية المعبرة عن النقد والهجاء والمعارضة والاستخفاف بالثقيل بأسلوب ساخر، وهذا ما نلتمسه من خلال المخاطبات التالية:

- **«قال الحسن بن هاني في رجل ثقيل:**

ثقيل يطالعنا من أمم إذا سرّه رغم أنفي ألم

أقول له إن بدا لا بدا ولا حملته إلينا قـــدم

- **وقال فيه:**

يا من علـى الجـلاس كالفتــق كلامك التخديش في الحلق

هل لك في مالي وما قد حوت كفـي من جـل ومـــن دقّ»[1]

«وأهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملا، ثم نزل عليه حتى أبرمه فقال فيه:

يا مبرما أهدى جمل خذ وارتحل ألفي جمل

قال: وما أوقـارهـــا؟ قلت: زبيـــب وعســـل

قال: وقد أبرمتكـــم؟ قللت: الأمـــر جلـل

قال: وقد أثقلتـــــهم؟ قلت لــه: فـوق الثقــل.

قال: فإني راحـــــل قلت: العجل ثم العجل.

يا جبلا من جبـــل فـــي جبل فـوق جبـل.»[2]

«وقال ابن المعتز:

وزائـــر زارنـــا ثقيـــل ينفر همي علـى سروري

أوجع للقلب من غريـم ظل ملـحا علـى فقيـــر

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 30-31.

2- المصدر نفسه، ص 32-33

ومن جراح بجسم ملقى يمخض مخضا على بعير

وقال بعضهم في أعمى:

لا تلومنّ من الشجاعة أعمى فسكات الجواب عنه صواب

كيف يرجو الصديق منه حياء ومكان الحيـــاء منــه خراب»[1]

«حدثنا ابن المرزبان، حدثنا أبي، قال: كان بعض مشايخنا إذا أبصر إلى ثقيل صاح الحجر، الحجر.

حدثنا أبو محمد التميمي، حدثني محمد بن....أن الورّاق حدثنا ابن الفضيل عن عبد الله...قال: سمعت الشعبي يقول:

من الناس من يخف ومنهم كرحى البرز ركبت فوق ظهري.»[2]

إن طريقة تهديد الوجه السلبي في الخطاب هي إستراتيجية مناسبة لنجاح التواصل بين النبلاء والثقلاء، بدافع عدم إظهار شدة البغض والإبرام التبرم) من الثقيل بطريقة مباشرة، فيتوسل المخاطب بهذه الطريقة، وعليه يتم بموجبها استدعاء الفكر والقيام بعملية الاستدلال للوصول إلى ما وراء أقول النبلاء حيال الثقلاء واستنتاج مواقفهم وأحاسيسهم، انطلاقا من استنباط قواعد التخاطب والعلاقة القائمة بين المتكلم والمستمع على وجهها الأكمل، يمكن أن نوضح هذا في رسم تخطيطي يبين سير العملية التخاطبية في مثل هذه النصوص التلميحية، وكيف يتحقق مبدأ التأدب الأقصى لدى المتخاطبين بوجهيه التعاملي والتواصلي[3].

1 - جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 34-35.

2 – ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 63.

3- فتيحة بوسنة، انسجام الخطاب، ص65.

العلاقة التخاطبية في وجهها الأكمل[1]

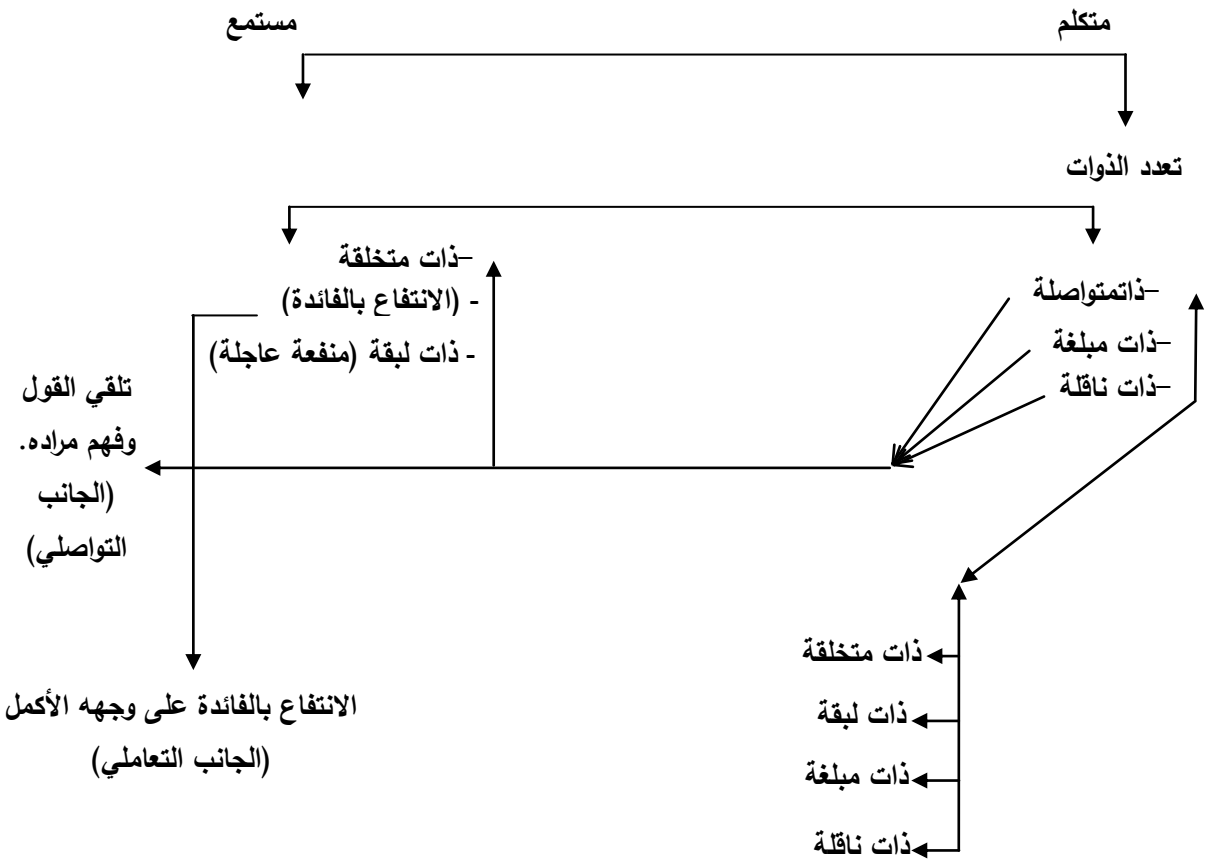

3-آليات الحجاج في الخبر:

تقوم العملية التخاطبية بين (متكلم ومستمع) على إقامة حجاج، حيث ارتبط الحجاج بالجدل والخطابة، عدّ " أرسطو" الجدل والخطابة قوتين تقومان على إنتاج الحجج من هنا أصبح الجدل جزءا من الحجاج في الحوار الخطابي لذا كان رأي " مصطفى ناصف" في البلاغة عند العرب بلاغتان: " أحدهما بلاغة الدعاية وكسب المخاطب واسترضائه واستمالته وتحسين القبيح وتقبيح الحسن وقد طبّقوها على الشعر. أما البلاغة الأخرى فهي بلاغة تتعمق دراسة اللغة وقد طبّقوها على القرآن بدراسة لغته ونظام عبارته وطريقة تركيبها ونظمها"[2].

1 – فتيحة بوسنة، انسجام الخطاب، ص ن.

2– ينظر: مصطفى ناصف، بين بلاغتين، ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ج1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص381، نقلا عن: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، 2001، ص24.

تتضمن العمليات التلفظية عند "ديكرو" O. Ducrot" وظائف حجاجية، حيث يرى أن "القيمة الحجاجية للملفوظ غير ناتجة فقط عن المعلومات التي يحتويها بل قد تحتوي الجملة على مورفيمات وتعابير أو صيغ، زيادة على محتواها الإخباري، تفيد إعطاء توجه حجاجي للملفوظ وحمل المتلقي إلى وجهة أو أخرى".[1]

يقوم كل خطاب على تطبيق السلم الحجاجي في تحليل القضايا أو الجمل وفهمها، يرى "شكري المبحوث" أن السلالم الحجاجية تنطلق من " إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول (ق) والحجة (ج) ونتيجة (ن) ومعنى هذا التلازم هنا هو أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية"[2]

ينطبق ذلك على خطابات "أخبار الثقلاء" حيث تقوم المحاورة بين فئة النبلاء والثقلاء على طريقة المحاججة على تصرفات وسلوك الثقلاء ذلك بتقديم معطيات حقيقية أو تاريخية تكون أولية أو ممهدة للحدث أو الفعل التحاوري ثم تأتي مرحلة بيان النتيجة في نهاية كل قول أو كلام وتتحول بعدها كل نتيجة إلى نتيجة ضمنية لا يصرح بها المخاطب فتصبح تلك النتيجة أقوى من الأولى، لينتج من ذلك الخطاب أو الملفوظ دلالة أخرى لذلك القول، من ذلك نجد هذه الأخبار:

وقال الحسن بن هانئ في رجل ثقيل:[3]

ما أظن القلاص منجيتي منك ولا الفلك أيها الرّجل

ولو ركبت البراق أدركني منك على نأي دارك الثقل

هل لك فيما ملكته هبـــة تأخـــــذه جملة وترتحل

وقال فيه:

ألا جبل المقت الّـ ذي أرسى فما يبرح

لقد أكثرت تفكيري فما أدري لما تصلح

فما تصلح أن تهجى ولا تصلح أن تمدح

وقال فيه

1 −O. Ducrot : les échelles argumentatives, les éditons de minuit, 1980, p19.

2− شكري المبحوث، النظرية والحجاج في اللغة، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، د.ت، ص363.

3− جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص31−32.

يا من على الجلاس كالفتـــق كلامك التخديش في الحلق

هل لك في مالي وما قد حوت كفّيّ من جـــــلّ ومــن دقّ

تأخذه منّـــــــي كذا فـــــديه واذهب ففي البعد وفي السّحق

في حديث "طه عبد الرحمان" عن كيفية تجسّد الحجاج في الخطاب، تطرق إلى ثلاث دعاوي مؤسسة هي:

1- **الدعوى الأولى:** التي تجسد أصل تكوثر الخطاب المتمثل في صفته الخطابية، أي أن الكلام أو القول ليس فقط وحدات مرتبة إنه ذلك البناء الذي تقف عليه العملية الخطابية وبذلك ينبني الخطاب على قصدين:[1]

- الأول: هو التوجه إلى الغير، ومعناه ما ذهب إليه " ياكبسون" و" بنفنيست" من أن لا وجود للتواصل إلا بوجود قطبي الخطاب (المرسل والمرسل إليه).
- الثاني: هو إفهام الغير، فلا يكون المنطوق به كلاما حقا حتى تحمل من الناطق إرادة إفهام الغير، وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعدّ متكلما حقّا حتى ولو صادف ما لفظ به فهما ممن التقطه، لأن الملفظ لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أفهم ما فهم سواء أوافق الإفهام أو خالفه.

من هنا يمكن القول أن الكلام هو ما يتولد في العلاقة التخاطبية وليس ما تلفظ به المتكلم بمراعاة الألفاظ المعجمية فحسب، بل لا بد أن يصل إلى فحوى الخطاب (القصد من الكلام).

2- **الدعوى الثانية:** هي الأصل في تكوثر الخطاب وهو صفته الحجاجية، إنه خطاب بلا حجاج وهو ما يتم بوضوح ما أضافه "طه عبد الرحمان" قصدين آخرين متمثلين في [2].

- الأول: قصد الإدعاء: وهو أن لا يكون الخطاب خطابا حتى يكون الناطق به معتقدا بما يقول، ويكون على استعداد لإقامة الحجة على ما يقول، سعيا من وراء ذلك إلى إقناع

1- عمر بلخير، " الحجاج والخطاب" مقال في مجلة مقدمات في الحجاج والنص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، 2011، ص39-40.

2- المرجع نفسه، ص 40.

المتلقي على خلو الحطاب من هذا القصد، يجعل المخاطب غير ملزم بالاعتقاد بما يقوله أو كاذبا في كلامه.

- ثانيا: قصد الاعتراض: يختص بالمخاطب الذي له أولوية مطابقة المتكلم بإيراد الدليل على إدّعائه، كي لا يكون للمنطوق له مبررات ودعائم لما يدعيه أو يكون غير مشارك في أثناء المحادثة التي تكون مع ناطقه، فيكون المعترض مطالبا بالتفسير والإفهام على ما يقصده المدعي.

3- **الدعوة الثالثة:** إنّ أصل تكوثر الخطاب هو صفته المجازية، فإنه يتجاوز فيها التصريح الثاني الذي يعد فيه الحجاج قائما على مجرد علاقة استدلالية من جانبين اثنين، لأنه لو كان الحال كذلك، لكان المدّعي مدّعيا فقط، والمعترض معترضا فقط، إن ماهية الحجاج هي ما يقوم على قدرة من الإلتباس الذي يميز بدوره الحجاج من البرهان، لأن الحجاج يغير برهانا يجعله يبتعد عن المغالطة، إن وجود الإلتباس في الحجاج لا يجعل للفظ الواحد معاني متعددة، ولا أن أصله غموض في تركيب الجملة في الدليل بل يكون الأصل في الإلتباس الحجاجي راجعا إلى "أن للحجاج اعتبارين إثنين: اعتبار الواقع واعتبار القيمة"[1] إذ أنه يمكن أن نصنع حججا وبراهين في خطاباتنا اليومية، لابد إذن أن نستعين بالألفاظ والعبارات غير المباشرة، إنّ الاستعارة تلعب دورا كبيرا في صناعة كلامنا مع الآخر، إذ يمكن لها أن تخلق في خطاباتنا صفة الإقناع والتأثير في المتلقي، وهذا ما أقرّه "فليب بريتون" " Philippe BRETON" في قوله أنه يمكن للاستعارة أن تعمل على الإقناع، وتكون الاستعارة حجاجية أيضا عندما تدعم أطروحة أو رأيا إذ يمكن أن تكون قوة المحجاجة في (أخبار الثقلاء) باستعمال مختلف الاستعارات في خطابات الرواة، الإستعارة لها دور حجاجي في إستمالة السامعين ودحض تلك الآراء حول الثقيل.

نجد في نصوص ابن المرزبان أن خطاب المتحاورين تتضارب دلالاته بين التصريحية والمستلزمة (تفهم من سياق المقام)، فيتحدد سياق الخطاب عند عبد الله صولة في ثنائية المنطوق والمفهوم من الخطاب. فالمفهوم كما عرّفه ديكرو: "حدث بلاغي مرتبط بالمقام الذي قيل فيه ذلك

1- عمر بلخير، " الحجاج والخطاب"، ص 42-43.

القول"[1]، إذ المفهوم يشمل جميع المعلومات التي من شأنها أن تحمل معاني متفاوتة بين ما صرّح به بدليل العبارة الحرفية وبين قول يفهم من المقام ومقتضى أحوال المتخاطبين.

نلاحظ ذلك في "أخبار الثقلاء"، فالخطيب يسترسل في كلامه ليجر المتلقي إلى تأويل أقواله استنادا إلى أسباب ومشاعر المتلقي ومعتقداته، التي أدت به إلى التلفظ بتلك العبارات التي تصف الثقيل في أثناء مجالسته. ترتبط بذلك أغراض المخاطب مع أغراض الذي يوجه إليه الكلام.

تهتم الأغراض اللغوية بالاستعمال الفعلي للغة وتراكيبها، بحيث يتم بها استنتاج القيم الدلالية فالروابط الحجاجية تتصل بالمتكلم في علاقة وطيدة مع الأغراض، وقد حاول جون سيرل Searle » » إدراجه في كتابه "أفعال اللغة"Les actes du langage » » بحيث قال برصد الأوصاف التي تستخدم للوصول إلى معنى الجمل، لذلك وضع ثلاث خطوات لإتباعها:

"–الفهم الدلالي للجملة.

–تقييد دلالة الجملة بشروط الاستعمال.

–إشعار المخاطب بقرائن الجملة ووسائطها قصد الفهم والإدراك"[2].

تأتي خطابات أخبار الثقلاء من قبيل هذا المنهج في الاستدلال، يخبر الراوي بمختلف الروايات والقصص، التي قيلت عن الثقلاء بأسلوب غير مباشر وفي اطار أسئلة (التداولية المندمجة)، التي تخضع لشروط وقواعد التخاطب بين المتحاورين في خطاب نثري سردي، تقدم فيه أحداثها بالتتابع الزمني والمكاني المستمر. ليصل المخاطب إلى نهاية الحكاية أو المتن الحكائي الذي يؤول إلى المعنى النهائي لتلك الرواية أو الحديث. يسلك المخاطِب في حكيه خطوات واستراتيجيات لإبلاغ نظرته إلى الثقيل، وذلك بالاستشهاد بمختلف الأخبار والآيات القرآنية والأشعار، يبرهن بها على حقيقة من يلقب بالثقيل.

يعتمد المخاطِب على الحجاج للوصول إلى إفهام المتلقي بذكر المناسبات. وإظهار حالة الاشمئزاز والازدراء بمجرد رؤية الثقيل أو التحدث إليه، وباستعمال مختلف الأساليب التعبيرية

---

1 -Voir : O. Ducrot : le dire et le dit, Op.cit, pp31-34

نقلا عن: عبد الله صولة، م.س، ص303.

2– رضوان الرقبي، "الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله"، مقال في مجلة عالم الفكر، ع2، مج40، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر– ديسمبر 2011، ص68.

والأغراض البلاغية كالهجاء والذم، هذه الأغراض البلاغية كالهجاء والذم، تجر المعنيين الى عقد مشاركة حوار يتم بتفاعل الأشخاص بإحداث فضاء من الأسئلة والأجوبة، إن للحوار مراتب متعددة تتمثل في طور الافتتاح وطور المواجهة وطور المبالغة ليصل إلى طور نهائي تختم به المتتالية السردية، وهو غلق تلك المتتالية (جون ميشال آدم).

الفصل الثاني: استراتيجية التلقي والتّأويل

المبحث الأوّل: الإستراتيجية التخاطبية

1- الإستراتيجية التلميحية

2- الإستراتيجية الإقناعية

المبحث الثاني : السخرية كإستراتيجية للإقناع

1- الخطاب السّاخر.

أ- آلية الحوار السّاخر

ب- متعة السّرد

2- الخرق البلاغي للخبر

3- البعد التداولي للسّخرية

I.الاستراتيجية التخاطبية

إنّ كل نص متعلّق بالمعنى الذي ينتجه عند عملية التلفظ به وكيفية تلقيه من الآخرين ولكي يتم التأويل في نص ما، لا بدّ أن نبحث على ما كان في ذهن المتكلم، إذا كان يملك كفاءات لغوية ومرجعيات تساعد على إنتاج نصه وغاية جلب القارئ (المتلقي) إلى مشاركته في ذلك، ثم التأثير فيه وإقناعه. يعمد المتكلم في ذلك إلى اختيار استرتيجية تناسب المقام وظروف انشاء خطابه، ليتحدّد بذلك المستوى البلاغي والابلاغي لنصه، لذا يقوم بالمزج بين العبارات المباشرة وغير المباشرة، ليتمكن بذلك من بناء أفكاره ومقاصده. وهذا ما يسمى بالإستراتيجية التخاطبية.

تتأسس عملية التّخاطب على متكلم ومستمع، ويتوجب على كل منهما مراعاة قوانين الخطاب حيث يراعي المخاطب في خطاباته اليومية إستراتيجية معينة لبلوغ القصد من كلامه وذلك يتم وفق استعمال عبارات وأدوات لغوية لبناء الهدف من القول للوصول بهذا القول إلى التأثير في المتلقي.

إن مصطلح الإستراتيجية متعلق بمعنى مختص بمختلف العلوم الحربية، لكي تكون في معركة لا بد لك أن تستعين بإستراتيجية محكمة لبلوغ الهدف، إذ لا بدّ من طرائق وأساليب يتم وفقها إنجاز أقوال في سياق ونسق محكمين بقواعد الخطاب ما يعني دراسة اللغة في استعمالها حين يؤدي إلى إنتاج الخطاب في مستوى ومحور تلفظه، عليه فإنّ الإستراتيجية التخاطبيّة تحمل وجهين متلازمين بوصفهما عملية ذهنية في مرحلة إنتاج الخطاب الأول، ثم يتجسد في مرحلته الأخيرة، وهي (التلفظ)، للوصول إلى مرحلة التبليغ لابد من أسئلة تحمل مضامين سياقية ليتولّد بذلك ثلاث مراحل وهي:

1- " إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة.

2- تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة ليتم اختيار الإستراتيجية الملائمة.

3- التلفظ بالخطاب"[1]

إن المراحل الثلاثة التي وضعها " عبد الهادي بن ظافر الشهري" تساعد على فهم الخطاب واستقرائه واستنتاج القصد من كل ملفوظ فإن المرحلة الأولى عدّها مرحلة ذهنية وقدم رأي " عبد

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص63.

القاهر الجرجاني" حيث يتم استنتاج القصد " بترتيب المعاني في النفس حتى تنتج عن طريق تلفظات، تكون ناتجة عن الأسئلة السياقية التي ينشأها المتكلم (المرسل) في قالب تداولي وبخاصة القالب الاجتماعي والمعرفي والإدراكي"[1]

فالسير الحسن لتحقيق إستراتيجية ما يكون وفق طبيعة الأدوات المناسبة لإنتاج خطاب المرسل (المخاطِب) وتأثير ذلك الخطاب في الآخر. هذه الأدوات هي (من- ماذا- حتى- أين- كيف) حيث يتم بها تشكيل خطاب ما وفق استرتيجية معينة، كالتلميحية، التوجيهية والإقناعية... وهو ما يسمى بـ " نظرية استعمال المعنى" أي إدماج الأسئلة بالأجوبة تكون بين نظام لغوي وعناصر سياقية، ويكون توظيفها في إنتاج خطاب مناسب للسياق ويظهر ذلك في كل مستويات اللغة"[2]. نجد ذلك في الحوار التخاطبي المنعقد في أخبار الثقلاء الذي يتم بمجموعة من الإستراتجيات، يستعين بها الرواة لتبليغ آرائهم وأفكارهم ومواقفهم عن الثقلاء.

يتم الحوار التخاطبي في أخبار الثقلاء على مجموعة من الاستراتيجيات يستعين بها الرّواة لتبليغ أرائهم وأفكارهم ومواقفهم عن الثقلاء.

عمدنا في هذا الفصل إلى اختيار إستراتيجيتين بارزتين ومناسبتين لدحض آراء المتخاطبين وإفهام الآخرين عن أسباب وصف الثقيل بأسلوب غير مباشر، ليتم في الأخير الإقناع والفهم إرتأينا إذن أن تدرج الاستراتيجية التلميحية والاستراتيجية الإقناعية ضمن عملية التحليل، فأين تتجلى هاتان الاستراتيجيتان في أخبار الثقلاء؟ وما هي المعالم التي تساعد على تعاقدهما في خطاب الثقلاء؟

1.الاستراتيجية التلميحية:

ارتبط مفهوم الاستراتيجيّة التلميحية عند العرب القدامى بالتخصصات المختلفة كالعلوم الأدبية واللغوية، ومنها ما ارتبط بعلوم الفقه وأصوله، وكانت الاستراتيجية التلميحية مركز الدرس البلاغي فيما يخص الكتابة والمجاز والتشبيه والحذف...

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص63.

2- م.ن، ص67.

يمكن للمرسل أن يتوخى في خطابه أساليب مباشرة ليعبّر عن قصده في كافة المستويات التعبيرية خصوصا ما تعلّق بالمستوى الدّلالي عبر شكل اللغة، وهو ما يتطابق مع معنى الخطاب مباشرة بيد أن هناك بعض المواقف التي تجعل دلالة الخطاب تستلزم استخدام التلميح " Off record" الذي يناسب سياق ذلك الخطاب، إن مباحث الحقيقة والمجاز كانت مدخلا لعلم البلاغة إذ يبدأ المؤلّف عادة بتوضح مفهوميهما ثم بإيضاح علاقة الحقيقة والمجاز وأدوات كل منهما وعلاماتهما اللغوية والآليات الذهنية للخروج على معنى اللغة الحقيقي، وكيف يتم تأويل الخطابات مع بيان القرائن الدالة على ترجيح قصد دون آخر، سواء في إنتاج الخطاب أو في تأويله، وقد نتج عن بحثهم عدد من النتائج والمصطلحات، التي تضاهي ما توصل إليه المحدثون من مفاهيم منها: مفهوم الاقتضاء ودلالة الخطاب وفحواه ودلالة العبارة ودلالة الإشارة، كما يرى (ليتش) أنه لإنجاز الأعمال غير المباشرة يجب أن نعتمد على احترام قادة العلاقة، فتكون الاستراتيجية التلميحية مناسبة لرغبة المرسل إليه الذي يقوم بإنجاز ذلك الفعل، فهذا الفعل الثانوي يمكن أن يعبّر عن المعنى الفعل الأول، أي ما لم يظهر في ظاهرة العبارة، وهنا تظهر وظيفة قاعدة العلاقة التي تكشف عن المعنى المقصود، كما نلاحظ ذلك في هذا الخطاب :

«أخبرني أبو محمد عن أبي الحسن القرشي عن ... أتي الحجاج بأسيرين ممن كان مع ابن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقال أحدهما: أصلح الله الأمير، إن لي عندك يدا، قال: وما هي؟ قال : ذكر ابن الأشعث أمّك بشيء فنهيتُه، فقال: ومن يعلم ذلك. قال : هذا، يعني الأسير الآخر، فسأله الحجاج، فقال : قد كان ذاك، فقال الحجاج: فلمَ، لم تفعل أنت كما فعل ؟ قال: أينفعني عنك أنني لصدقه، وعن هذا لفعله : ليخضط وبغض قومك، قال الحجاج: خلوّت عن هذا لصدقه، وعن هذا لفعله»[1]

يمكن أن نفهم معنى هذا الخطاب في معناه الظاهر أو الحرفي، "فإن قراءة النصوص في بنيتها السطحية يظهر لنا المعنى في السياق الخارجي معنى بسيط ما نسميه معنى الجملة أو العبارة كما هي، غير ما يقوم به السياق الداخلي للنص من دور في استيعاب أفكار الكتاب أو المتكلم يمكن أن يحدّد ذلك نوعية النص، وما هو التفاعل الذي يحدثه النص وتوليده لدلالات عدة

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 79.

ويكون بدوره السياق الخارجي الشيء الأساس في عملية تأويل النصوص"[1].غير أنه إذا لم نفهم السياق الخارجي للنص لا يمكن بالضرورة تأويله انطلاقا من سياقه الخارجي فقط. هذا ما يصعب الوصول إلى المراد من القول، حيث تكون عبارات أو جمل النص أو بعض كلماته غامضة، وذلك ما يؤدي بنا البحث والتحليل لمعنى القول المضمر، لذا يجب أن تكون كفاءة القارئ اللغوية جدّ واسعة وملمّة بالمعارف والثقافات عن جل المجتمعات بما في ذلك عصرها وظروف وأحوال المتخاطبين.

إذا ما رجعنا إلى نصوص "ابن المرزبان" الذي يقول: «أخبرنا إبراهيم بن محمد بن طلحة عن عبيد الله قال لأبي هاشم بن محمد بن الحنفية، أما والله لأبغضك قال : ولم لا تبغضني وقد قتل جدّي أباك ، وجدّك، ونكح عمّي أمّك.

خطاب آخر: "قيل للأعمش ما تصنع عند مطهر؟ قال : أيته كما آتي الحش إذا كان لي إليه حاجة".

قال: ذكر المدائني عن بعض رجاله قال: كان يقال : عوّد نفسك الصّبر على مجالسة الثقيل، فإنه لا يكاد يخطئك»[(2)]، نلاحظ في هذه النصوص أنها مجازية، لقد رأى السكاكي أنه يمكن للمرسل أن يخرج عن المعاني الحقيقية للأفعال اللغوية ينجز بها الأفعال الأخرى المجازية فقد نظّم العلماء تلك المصطلحات التي تشير إلى المعنى الحقيقي وغير الحقيقي في الخطاب بالنظر إلى علاقة الملفوظ وما يتلفظ به المرسل، وفق آليات متعددة، وهذا ما يسمى حديثا بالمعنى غير الحرفي عند "سيرل" نحو ما يلاحظ في الخطاب الإستعاري.

من المسالك التي اعتمدها المخاطب في أخبار الثقلاء، آلية التهكم التي تقع بين معنى الملفوظ، والمعنى الذي ينتج عن تلك الجمل والعبارات في مخاطبة الثقيل، لأن ما يعنيه المخاطب في خطابه (الملفوظ) مع معنى الجمل الحرفي، يتغيّر. قال الشّهري أن "لا تخلو العلاقة بين

1- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2003، ص 88

2- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 73-80

الملفوظ والقصد من بعدين هما : أن تكون بينهما علاقة مباشرة مثل علاقة اللاّزم والملزوم في الكناية، أو لا تتوفر تلك العلاقة أصلا، مثلما هو الحال في آلية التعريض"[1].

عادة ما يحقق المرسل أكثر من قصد في خطابه، غير أنه في حقيقة الأمر لا يتجاوز إلا نوعين من الاستراتيجيات من حيث شكل الدلالة، وهما:

- الاستراتيجية المباشرة: يكون فيها الكلام موجها إلى الآخر بطريقة مباشرة دون أي تلميح.
- الاستراتيجية غير المباشرة: يحتاج فيها المرسل إلى أن يستعين بالعمليات الذهنية يتجاوز فيها العبارة اللغوية للوصول إلى القصد، يمكن أن نختصر ذلك بقول " أحمد المتوكل" الذي نص على أن " القوة الإنجازية الحرفية مدلول عليها بطريقة صوغ العبارة والقوة الإنجازية المستلزمة تتولد عن القوة الأولى طبقا لمقامات معينة"[2] فقد ميّز بين القوّتين من خلال إلزام القوة الإنجازية الحرفية للعبارة اللغوية بمختلف المقامات، فحين تبقى القوة الإنجازية المستلزمة تستلزم ما يواكب المقام، حيث لا تتولد إلا في طبقات مقامية معينة "فالقوة الحرفية تختلف عنها في أخذها مباشرة من صيغة العبارة ذاتها"[3] إذ أن القصد يتحقق وفق السياق الذي وجد في لفظ الخطاب في معناه الظاهر، وقد يتعدد بتعدد السياق خصوصا وأن خطابات (أخبار الثقلاء) تحمل خصوصية تحدد المعنى في معنى اللفظ الواحد، إنها خطابات أنتجت في سياقات وظروف وأحكام دينية وعقائدية واجتماعية وسياسية، فلا يمكن معرفة القصد أو المعنى النهائي، ما لم ننخرط في تلك الظروف التي ألقيت فيها تلك الأخبار.

لا يخلو قول المرسل في إيجاد ما تلفظ به، وما قصد من ذلك الملفوظ في الخطاب في الإستراتيجية التلميحية من إحدى الحالتين[4]:

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 380

2- أحمد المتوكل، أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، سلسلة بحوث ودراسات، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1993، ص 21-23.

3- م.ن، ص21-23.

4-نفسه، ص 380-381

1. **الحالة الأولى:** أن يبدع دلالته على القصد بتوليدها لغويا، فيستعمل آليات معينة مثل المجاز بأنواعه، إذ لا يحدّ قدرته أي حدّ، لأنه يتكئ على السّمات الدلالية الموجودة في ذهن المرسل والمرسل إليه، لإيجاد تلك العلاقة بين الملفوظ والقصد.
2. **الحالة الثانية:** أن يستعمل القوالب اللُّغوية المأثورة مثل التعبير بالتلميح، إذ إنّ ما يقول هيتفق مع معنى ما يقصده، فهو يصرّح بذلك المعنى لكنه يشير إليه بالتلميح، وقد يوجد لذلك سببا بعدم التّصريح به ويكون منبّها ومؤشّرا على قصد المرسل باستخدامه أدوات لغوية، كما نلاحظ ذلك في الأخبار الآتية:

من الأخبار الواردة بالتلميح في أخبار الثقلاء نجد منها ما يأتي:

" حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أبو داود الطيالسي، قال قال حماد بن سليمة: الصوم في البستان من الثقل"[1] ورد في كتب أخرى (الصوم في الشتاء) وهو تعبير مجازي عن الذي لا يقدر ما أنعمنا الله من خيراته وما طاب ولذّ فلا يحمده فهو أكيد عبد بغيض عند الله ورسوله وملائكته. هنا نلتمس دلالة أخلاقية تربوية تعبر عن أهمية الاعتراف بما أنزله الله من خيراته إلى عباده فيجب أن نحمده ونشكره دائما على نعمه العظيمة. فحين نلمح بالمواعظ يمكن أن نصل إلى ما نقصده من كلامنا بشكل أفضل وسريع. كما يمكن أن نعتبر عن أحاسيسنا تجاه الثقيل عن طريق حواسنا كما نرى ذلك في هذه الأمثلة:

"حدثنا إسحاق بن محمد، قال: رجل لبشار الأعمى: إنه لم يذهب بصر أحد إلا عوّض، فما عوّضك من ذهاب بصرك؟ قال: ألا أرى وجهك فأموت غمّا"[2]

" حدثنا ابن المرزبان، حدثنا أبي، قال: كان بعض مشايخنا إذا أبصر إلى الثقيل، صاح: الحجر، الحجر.

" حدثنا أبو عباس المروزي، حدثني عليّ بن الحسن، قال: كان أبو أسامة إذا أبصر إلى ثقيل قال: قد تغيّمت السماء"[3]

---

[1]– ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص57.

[2]– م.ن، ص.ن.

[3]– نفسه، ص61.

تشير هنا هذه الأخبار إلى دلالة سيميائية يعبر بها النبلاء عن صفات الثقيل، وما أحوجهم أن يتم الله نعمته عليهم ويجعلهم أصماء وعميان لكي لا يسمعوا كلام الثقيل ولا يبصروا إليه.

"حدّثنا محمد بن بكر، حدّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا أبو مسهر عن مزاحم بن زفر قال: سألتُ شعبة عن أبي بكر الهذلي: قال: دعني لا أقيء، فقول شعبة "دعني لا أقيء"[1] هو تعبير عن قصد بإستراتيجية تلميحية وهو ما يسمى بـ مفهوم الخطاب" الذي يقابله منطوق الخطاب، فقد يفهم "مزاحم بن زفر" وهو يقصد أمر آخر وهي أفعال الكلام (الأمريات) عند "سيرل" ويسمى بالقصد "بالمفهوم" وأنّ المفهوم هو : دلالة اللّفظ على حكم شيء سواء أكان الحكم المدلول عليه موافقا للمنطوق به، أم كان مخالفا له فإذا كان موافقا للمنطوق به، يسمى مفهوم موافقة، وإذا كان مخالفا له للمنطوق به سمى مفهوم مخالفة"[2]، وهو ما يسمى عند "غرايس" بمصطلح "الاستلزام الحواري" فقد يستلزم المعنى الحرفي معاني متعددة تفهم من سياق الكلام، يكون المخاطب في محاورته مع الثقيل، يستثمر كفاءاته التداولية باستخدام وسائل وطرق شتى، كي يبلغ هدفه ومقصد الخطاب الحقيقي والنهائي، منها التهكّم والسّخرية والكناية والاستعارة.

2. الإستراتيجية الإقناعية :

إحتل خطاب المناظرة في التراث العربي مرتبة أول، حيث يلجأ المخاطب ليبرز بها كفاءته التداولية "La compétence pragmatique" التي تساعده على بلوغ قصده، ما دفع المتكلمون أو المتحاورون إلى استخدام الإقناع في مجال المناظرات والمجادلات في مذاهب مختلفة، ومن وسائل الإقناع التي يستخدمها المرسل، نجد أن "محمد العمري" قد قدّم نماذج منها وفق ما ذهب إليه "أرسطو" في تقسيمه الخطابة إلى ثلاثة : هي : وسائل الإقناع أو البراهين – الأسلوب اللّغوي – ترتيب أجزاء القول[3]،ذلك ما دعا إلى تصنيف الخطابة على أنها وعظية ومذهبية بحيث يسعين العري القدامى في خطاباتهم بالشواهد والأحاديث والأمثال والأشعار للتأثير في القارئ واستمالته، ثم إقناعه.

---

[1]– ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص64.

2– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 382.

3 – المرجع نفسه، ص 453

بيّن "محمد الواسطى" أساليب الحجاج في المصنفات التراثية واستنتج منها أساليب مصنّف التعليل والمبالغة والتّشبيه الضمني والإستعارة والاستشهاد بالأحاديث النبوية والأشعار، جمعها "ميشال ماير" في أعمال كثيرة منها ما كان حول الحجاج ونظرياته : وأخذ منها نظرية المساءلة والأساليب المغالطية.

تعد عملية الإقناع أساس في الجملة الحجاجية، فالحجاج هدف مهيئ لتحقيق الإقناع الذي يمنح للمرسل صلاحية استعمال آلية الحجاج في سياقات عديدة مثل الدعوة الطلب والإقرار والإذعان والإحجام والتحذير من العادات السيّئة...

لذا يكون الحجاج مهمّا عند المرسل، يتمّ به مخاطبة الآخر واستضعافه باستعمال الألفاظ المناسبة لذا نرى أن الإستراتيجية الإقناعية لها أهميّة لتحقيق المقاصد في خطابات مختلفة، خصوصا ما ارتبط بالخطاب الجدلي أو المنافري، من هنا قال الشّهري : "إن الدراسات العربية للجاحظ لم تكن كافية، فقد أهملت الجانب النّظري، فذهب إلى مناح شكلية أخرى دون أن تهتمّ بجاني البلاغة التداولي المرتبط بالإقناع المعبّر عنها بالمخاصمة بين الطرفين أو المخاصمة أو المجادلة..."[1].

إن الإخباريين في النّصوص التراثية يعمدون إلى استخدام استراتيجية الإقناع فيما يخبرون به نلاحظ أنّ نصوص "ابن المرزبان" في كتابه "ذمّ الثقلاء" تبين مختلف المسوّغات والوسائل المتّخذة لإقناع الآخر بوجود أشخاص في المجتمع لا يحتملون ويتبرّمون منهم من شدّة ثقلهم على الآخرين، لأنهم لا يحسنون المجالسة ولا يأتنس بهم، بحيث ليس لهم حضور في المجتمع لذا يتعيّن على المتخاطبين في هذه الأخبار إلى الإستعانة بشتى الوسائل اللّغوية والأساليب البلاغية والحجاجية عند مشتركتهم الحديث معهم، وإحداث التفاعل والتأثير فيما بينهم.

تنشأ عمليّة الإقناع في العملية التخاطبية في أخبار الثقلاء بعنصر الحجاج، بحيث يهتم المتخاطبون بنوعية الحجج والبراهين التي تساعدهم على بلوغ القصد، فينصب اهتمامهم على رّبط الحجة بسياقها بهدف بلوغ سبيل السّامع ليسدّ أراء وحجج المتلقّي ويستضعفها، يختار ما يناسب كفاءة المرسل في قالب لغوي. فللغة دور في التفاعل وهو توافر "فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 454

التأثير وأن الوظيفة الأساسيّة للّغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية"[1] فبالتحاجج يمكن أن نصل إلى المعنى المقصود في خطاب الثقلاء، وهذا ما نلاحظه في هذه الأخبار :

«قال أخبرني أبو بكر العمّاري، أخبرني أبو الحسن المدائني... محمد عن علي بن مجاهد عن عنبسة بن سعيد : أنّ إبراهيم محمد بن طلحة بن عبيد الله قال لأبي هاشم، بن محمد بن الحنفية : أما والله إني لأبغضك قال: ما أحقك بذلك، ولم لا تبغضني وقد قتل جدّي أباك، وجدّك ونكح عمَّي أمّك؟! »

"قال : أخبرني سلمة بن يزيد، حدثني أو حاتم السجستاني ، قال، قال الفضيل بن إسحاق الهاشمي، قعد إلى بشار رجل – وكان يستثقله – فضرط عليه بشار، فقال : انفلتت منه ثم ضرط عليه أخرى، فقال : انفلتت منه، ثم ضرط ثالثة، فقال الرجل: يا أبا معاذ، ما هذا؟ قال: مه رأيت أو سمعت ؟ قال : لا بل سمعتُ، قال، لا تصدّق حتى ترى".

"حدثنا لو ...ن، حدثنا إسماعيل بن هارون قال، قال المأمون في نديم كان له وكان يستثقله:

ونديـــم كأنــه غصص المـــــو ت كثير المراء يشجـــي الخليلا

يتغنـــــى وليس يحسن شيئا لا، ولم .....

ويصلّي في غير وقت صــلاة ليــس إلا لكــي يكـون ثقيــلا

ليتــه شجنـــــي وفرُّ إلى النّا ر وكان الشيطان منــه بديــلا[2]

يقول فان دايك أن "الأفعال المنجزة مرتبطة بالسياق الذي يكون فيه المخاطب حاضرا والذي يحدث فيه تغيير ما على المخاطب طبقا لأغراض ومقاصد المتكلم، مع شرط التواضع والاتفاق"[3] إذ أن المخاطب ينجح في إقناع الآخر إذا نجح في إنجاز قوة أفعال الكلام نجاحا كاملا، كما قد يكون فاشلا في فهم مقاصد قوة فعل الكلام الذي يلقيه المخاطب حتى إذا تم فهم مما قيل.

1- ابو بكر العزّاوي، "سلطة الكلام وقوّة الكلمات، مقالة في مجلة المناهل، وزارة الثقافة والاتصال المغربية، العدد 62–63، ماس 2003، ص 142–143 : نقلا عن: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 457

2 – ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 74–77

3– فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 2000، ص 266.

يلجأ الرّاوي هنا إلى الإستعانة بمجموعة من الحجج الدّامغة، وهي حجج تحيل على شكوى المأمون من النديم الذي يزوره فيستثقله في كلّ مرّة، فقد وجّه له خطاب يحمل معنى الهجاء والانتقاد بذكر صفات الثقيل الدنيئة والقبيحة، وهذا يحيل على مقدار البغض والهروب من مصاحبة الثقيل بذكر أيشع سلوكاته ومظاهره وهيئته الجسدية وأحواله النفسية، المرسل هنا يدرك أنه لكي يقنع السّامع بحججه يجب أن يستعين بوسائل أخرى مثل التهديد والمراوغة في التعبير والوعد والوعيد والإعتراض. ذلك أن الخطاب يناسب تحولات سياق الخطاب وما يقتضيه تحول هذا السّياق من إدّعاء وإعتراض وقبول ورفض، ويتحوّل بذلك درجة قناعات المرسل إليه، حيث أنّ المرسل إليه لا يكتفي بحجّة أقوى من الحجج الأخرى، حيث أن من صفات الحجاج أن تتجسّد فيه خمسة ملامح رئيسية حسب "الشهري" هي[1]:

1- يتوجه بالحجج إلى مستمع.

2- يعبّر عنه بلغة طبيعية.

3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4- لا يفتقر تقدّمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5- ليست نتائجه ملزمة.

يلجأ المتحاور في أخبار الثقلاء إلى الإشتهاد بالشّعر لإقناع الحاضرين في تلك المجالس فقد أسهم أبو بكر العزّاوي في الحجاج بعدد من المقالات التي توزّع بين دراسة الشعر والنّثر دراسة حجاجية، من هذه المقالات ما جاء بعنوان : "نحو مقاربة حجاجية للإستعارة"، إذ طبّق فيه مفهوم السلم الحجاجي على الاستعارة في هذا المقال، مستنتجا أن "الإستعارة تفضل الحقيقة من ناحية قوّتها الحجاجية، إذ يبدو أنّ الأقوال الاستعارية أعلى حجاجا من الأقوال العادية"[2]، بالشعر يكون الإقناع أقوى لتقريب المعنى إلى المتلقي، إن معظم خطابات التي وردت في رسالة "جلال الدّين السيوطي" تحمل صفات الثقيل بأسلوب بلاغي محض، يستعين فيه الشاعر بكل الأساليب البيانية والبديعية، لإيصال الفكر وتحقيق الإقناع: ففي هذا الخطاب نلتمس وجهة مغايرة من أساليب

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 458

2- المرجع نفسه، ص 452

الإقناع، فمنه يستمدّ القارئ خصوصية الخطاب الإستعاري، الذي يلجأ إليه المخاطب لمخاطبة الثقيل بطريقة غير مباشرة، وهذا ما يقوّي علاقة المرسل بمتلقيه وجلب انتباهه، حيث يوجّه المرسل خطابه إلى الثقيل كي يقنعه بعدم الرّغبة في مجالسته أو محاورته، فمثلا نجد هذا الخطاب الشعري:[1]

وقال العباس بن الأحنف، أورده الخرائطي في "مكارم الأخلاق"

أما والذي أسرى بليل بعبده وأنزل فرقانا وأوحى إلى النّحل

لقد ولدت حوّاء مــنك بليّــة عليّ أقاسيها وثِقــلا من الثّقل

إن الشعر وسيلة توسل بها الشعراء بهدف إبلاغ الفكرة مباشرة في النفوس البغيضة فقد عبر " العباس بن الأحنف" عن الثقيل بأنه بلية نزلت عليه فيقاسي منها من شدة ثقله عليه.

يكون المعنى هنا موضوعي، إذ يقول "جورج لايكوف" في هذا الشأن أن المعنى يكون مستقلا عن الإستعمال حين " يقتضي رصد الصدق، عند النزعة الموضوعية أن يكون المعنى موضوعيا بدوره، وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي إقصاء كل العناصر الذاتية أي كل ما هو مميز لسياق خاص، أو مرتبط بالثقافة أو بصيغة فهم خاصة"[2]، حيث كان" العباس بن الأحنف" يقصد الإخبار عن الثقيل بشكل موضوعي، بحيث يرى، "دافيد ليويس" أن الخلط بين الكلام الموضوعي والكلام الذاتي (اجتماعي، نفسي) وما هو مجرد عند مستعملي اللغة قد يؤدي إلى الغموض فهو يميز بين الموضوعين حيث بإمكان الجملة أن تطابق الواقع أو لا تطابقه، فإذا كانت مطابقة للواقع فهي صادقة وإذا لم تطابقه فهي كاذبة حسب شروط نجاح الأفعال اللغوية والإثباتات أو الإخباريات.

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص 37.

2- جورج لايكوف ومارك جونسن، الإستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال للنشر، 1996، ص193.

II. السّخرية كإستراتيجية للإقناع:

1. الخطاب السّاخر:

تعد السّخرية (Ironie) من الأساليب البلاغية التي تدعو إلى الهزل والسّخط من الخصم كما أنها وسيلة للتّغلب على الغير في أثناء المنافرة والإبرام من شخص تمقته أولا تطيقه بسبب شكله وخلقه وشخصه، إنّها فنّ من الفنون الأدبيّة التي تشكّل في الأسلوب متعة وجمالا وتأثيرا في النّفس بتحويل كل مبرم أو مضجر من الحياة اليومية الشاقة والجادّة إلى شخص تملؤه الطمأنينة وإحساسه بالرّاحة من جدّ الكلام والعمل، وهذا ما يميّز طابع الخطاب في أخبار الثقلاء بشكل خاص، حيث يعبّر الأدباء والعلماء عن رأيهم في الثّقيل بأسلوب تهكّمي بحيث يستخفون من شخصية الثّقيل أو المعتوه والمغفّل، ما دفع بالرّاوي إلى جمع الأخبار وتوزيع الأحداث في قالب ساخر بموجب الإثارة والتأثير في المروي له (المتلقي)، عمد " ابن المرزبان" بذكر الأخبار التي قيلت عن الثقيل، حيث رصد تلك المحادثات التي جرت بين الفضلاء والنبلاء والثّقلاء بطريقة الإسناد في فضاء حكائي متواتر: نقل كلام الشخصيات الفذة ثم التركيز على الشخصية السّاخرة في تلك الحادثة أو الرّواية، ثم تتولد عن تلك الرّواية بقية الأحداث، لتصبح تلك الشخصية السّاخرة ضمن الحدث أو الخبر الأساس، ويلفت انتباه المتلقي، فيجعله بعد ذلك يفهم مغزى ذلك الخبر (الخطاب) السّاخر من خلال الوظيفتين الوصفية والإسنادية في الحكي، هذه الطريقة السّاخرة في إلقاء أخبار الثقلاء كالآتي:

«حدّثنا عبد الرحمن بن محمد التميمي، حدّثنا عبد الوهاب بن عطاء العجلي.

حدثنا محمّد بن روح أبو سهل الباجي، عن محمّد بن محمد بن زياد قال: كان أبو هريرة إذا ثقل عليه الرّجل، قال اللّهم أغفر له، وأرحنا منه.

- حدّثنا عبد الله القرشي، قال حدثني محمد بن قدامة، قال، سمعت أبا سامة يقول : سمعت بن عبيد هشام بن عروة يقول لرجل : لأنت أثقل من الزّواقي، قال ابن قدامة سألت الفرّاء عنها، فلم يعرفها، فقال جليس له إنّ العرب كانت تسم باللّيل فإذا سمعت زقاء الدّيكة ثقل عليها مجيء الصبح، قال فأعجب الفرّاء بذلك»[1].

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 53-55

1-1- آلية الحوار السّاخر :

لكي نتواصل لا بد من توافر اقتضاءات لإنجاح عملية التواصل وكل مناظرة من حيث هي أسلوب حواري يقتضي إدراك القواعد والأصول التي يجب تتبّعها ليتمّ الحوار بشكل جيد، قال ديكرو." O. Ducrot" عن هذه القواعد: " إن كانت لها وظيفة، فهي تمثل الشرط الأساس للتماسك العضوي للخطاب... ويعني قبول هذا الأخير كشرط لحوار لاحق"[1] تضفي وظيفة الاقتضاء على القارئ فرضية مسلما بها لحصول الفهم وذلك دون تحمل مسؤولية مقصدية عن المحتوى، وكميّة هذا المحتوى المقتضي"[2] فهي تلك المعلومات المتوفرة في الكلام والمرتبطة بشروط النجاح، حيث ترى "أركيوني" "K.Orrechioni" أن يكون الفعل الكلامي قابلا لأن يكون له مفعول تأثيري"[3] كما ترى ذلك في هذه الأخبار :[4]

وقال البهاء زهير:

ربّ ثقيل لبغض طلعته أخشاه حتى كأنه أجلي

وأينما قلت لا أشـــاهده ألقاه حتى كأنه عملـي

وقال آخر:

وثقيل قال صفنـــــي قلت يا ثقيل الجبـال

قال هل أثقـــل منـي؟ قلت ذا عين المحال

قال رجل لبعض المغنين في مشاجرة جرت بينهما، والله ما تعرف الثقيل الأول ولا الثقيل الثاني، فقال: كيف لا أعرفهما وأنا أعرفك وأعرف أباك؟ ألمّ بهذا بعض الشعراء فقال:

ألا يا ثقيل الروح وابن ثقـــيلة أرى الثقل طبعا في أبيك وفيكا

أبوك إمام الناس في الثقل كلهم وأنت ولـــــــي العهد بعد أبيكا

نلاحظ في هذه الأخبار أنها تحمل في محتواها الإقتضائي معنا تهكّميا ساخرا، يجر السامعين إلى قبول المشاركة في حوار لاحق، الذي يستدعي وجود شروط المحاورة أو المحادثة

1 - O- Ducrot : Dire et ne pas dire, 2ème édition, Herman, Paris,1980,p81

2- فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية تر، سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص52

3 - K.C. Orrechioni : l'implicite, Armand Colin, Paris,1986,p36.

4- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص48-49.

بين المتفاعلين في ذلك الحوار ليتمكنوا في الأخير من فهم محتوى ذلك الكلام. حيث نلاحظ في الحوار الذي دار بين الرجل وبعض المغنين في جدال حول معرفة من هو الثقيل بينهما فأجابه أحد المغنين أنه يعرفه بأنه ابن ثقيل وثقيلة، بذلك أنشد الشعراء في هذه المناسبة شعرا قالوا فيه أن الثقل يورث من الأبوين ويصبح طبعا في الإبن، فيكون الأول ثقيلا فيأتي الإبن ليكون خليفا له في الثقل.

إرتأينا في هذا العنصر أن نوضح كيف تجري عملية التحاور أو التخاطب التي تحدث بافتتاح السرد على مصدر الخبر الذي تم نقله، ما يظهر جليا في استرتيجية التخاطب في (أخبار الثقلاء)، ويتم نقل الخبر أولا بذكر أعلام وشخصيات ذلك العصر، ثم ذكر الخبر أو نقله على مستوى المتن، ليتطور بعد ذلك الحكي أو الحدث باستعمال الطريقة الحوارية التي حدثت بين المرسل (جلال الدين السيوطي) و(ابن المرزبان) مع المتلقي (الثقيل). إذ يوجد بينهما واسطة تكون بين الخبر المنقول، والخبر المروي بإسناد رواية ما إلى هؤلاء الرواة العرب وفق قواعد المحادثة التي تحدث بين فئتين من المجتمع: فئة الفضلاء والعظماء وفئة الثقلاء، هذه المحادثة مبنية على جوانب تداولية قائمة على علاقتين علاقة إستدلالية وعلاقة تخاطبية اللتان تتأسسان على جانب تواصلي (إبلاغ الخبر) وجانب تعاملي أخلاق المتحاورين، وهذا ما يتبين من الخبر الآتي:

" حدثنا موسى بن الحسن النسائي، حدثنا عبد الله بن بكر السّهمي، حدثنا محمد بن... عن ابن أبي هشام مولى آل عثمان بن عفان، عن محمد بن كعب القرظي قال، دخلت على عمر بن العزيز، فقال: أعد لي حديثا كنت حدثته عن ابن عباس، فقال أتبت النبي (ﷺ) فقال: ألا أنبيكم بشراركم قالوا: بلى يا رسول الله قال: الذي ينزل وحده ويجلد عبده، ويمنع رفده، ألا أنبيكم بأشر من هذا، الذي يبغض الناس ويبغضونه"[1]

تبنى العلاقة التخاطبية في خطاب ما على أقوال كل فئة من الفئات، بحيث تنتج هاتان الفئتان يسلك استرتيجية ملائمة، تساعد على بلوغ القصد بذكر صفات الثقيل وذمّه، وما أسباب تعكّر مزاج الفضلاء، والتحاجج عن تصرفات وسلوك هذه الفئة من الناس. لذا فإنّ اتباع قواعد "غرايس" "Grasse" منها قواعد مبدأ التعاون "Principe de coopération " التي أرادها أن تكون

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص51.

واضحة ومضبوطة تضمن نجاح العملية التخاطبية وقد يحدث أن يخرق بعضها مع إبقاء "مبدأ التعاون" ذلك بإرساء الإفادة التي تتحقق وفق " ظاهرة المعنى الصريح الحقيقي ثم تنقل إلى وجه آخر غير صريح وغير حقيقي، وتكون بذلك المعاني المنتجة بين المتخاطبين ضمنيّة مجازية"[1]

نخلص في هذا العنصر إلى أن القارئ لنصوص "أخبار الثقلاء" يجد هذا التفاعل بين المتخاطبين بحصول حوار طريف الذي دار بين فئتين متباينتين اجتماعيا وثقافيا وأخلاقيا ودينيا... لكي نصل إلى فهم فحوى خطاباتهم لا بد من الاستعانة بعلامات تكون مصاحبة لكلامهم (كالإشارات والإيماءات بالعين أو الرأس أو اليد...) كما استعان متحاورون في "أخبار الثقلاء" بمختلف أدوات اللغة، وقد كان للبلاغة حظا أوفر في إنشاء خطاب الثقلاء كالاستعارة والكناية والتشبيه والإيجاز والإطناب والمقابلة إلى غيرها من الأساليب، حيث تكون الأقوال والأفعال غير المباشرة هي التي تساعد على فهم وإفهام كلام الرواة والشعراء

يتضمن أسلوب الحوار السّاخر في أخبار الثقلاء، تصوّرا قصصيا يصوّر فيه المؤلّف حكيه في زمن وفضاء محدّدين، بحيث يصف الرّاوي الشخصية وملامحها الخارجية، وقد يتوغّل إلى الأعماق ليصف عالمها الدّاخلي وما يدور فيه من خواطر نفسية أو حديث خاص من الذّات[2]. يقوم السارد برصد الأحداث ونظمها وتحديد فضاء وزمن الحكي لينسب تلك الأحداث إلى قائلها وليتمّ بها مبنى الخطاب.

يرجع سبب وجود السّخرية في كتاب الثقلاء إلى صاحب الكتاب في أدب السّخف إنه أوّل كتاب فيه مثل هذه الموضوعات بأسلوب ساخر، وأعاد صياغتها المؤلف "ابن المرزبان" في الكتابة السّاخرة، وهو نمط المؤلّف في تأليف نصوصه، بسبب نزعته الهجائية، فاستعمل ألفاظا لاذعة ليصف بها الثّقيل ويهجوه.

إن ما نلاحظه في أخبار الثقلاء، أنه ورد في نصوصها نوعان من السّرود حيث تكون المشاهد المسرودة تجيب عن أسئلة بسيطة وأخرى تستدعي تقديم أكثر من جواب أو معلومة حول تلك الأسئلة، نجد مثلا الأخبار التي وردت على شكل أوصاف وحكايات وطرائف حتى على شكل

1- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص239.

2- طه وادي، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1993، ص 40

نعوت لمن يسمى بالثقيل. إذ يأخذ الواصف بمجموعة من الأسماء التي تلقى على الثقيل، يجر المتلقي لمشاركته في ذلك الحوار، فيحصل الإمتاع بأسلوب ساخر، ويكون هذا الأسلوب ساميا، أي لا يمتلك أي وظيفة خارج الحدود المرسومة، ولا يملك أي معنى أدبي أو رمزي[1]، أي أنّه يتلفظ بهذا الأسلوب بهدف التسلية والترويح عن النفس فحسب، نجد هذا النّوع من السّرد في العينات الآتية[2]:

"قال، أنشدني الحسن بن صالح البرقي للمكتّب:"

أما الحبيب فلا يمل حديثهُ وحـــديث من أبغضته ممــلول

وتديـــر طــرفك للحبيـــب والطرف من دون البغيض كليل

"حدثنا أو الفضل أحمد بن طيفور قال: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله الخوارزمي قال: لقيت شريك بن عبد الله يوما بباب الكرخ–أيام المنصور فقلت : يا أبا عبد الله حدثني بحديث كذا وكذا فحدثني، فقلت: يا أبا عبد الله آخر قال: لو كنت ثقيلا في العيان كان هينا ولكن أنت ثقيل على القلب".

"حدثنا أبو محمد، حدثني جعفر بن يعقوب، حدثني أحمد بن إبراهيم عن جعفر الأحمر، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، قال: عيادة حمقى القرّاء أشد على أهل المريض من مرض مريضهم، يعودونه في غير وقت عيادة ويطيلون الجلوس".

" قال أخبرني أبو بكر العمّاري، أخبرني أبو الحسن المدائني... محمد علي عن علي بن مجاهد، عن عنبسة بن سعيد، أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله قال لأبي هاشم بن الحنفية، أما والله إني لأبغضك، قال ما أحقك بذلك وبم لا تبغضني، وقد قتل جدّي أباك، وجدّك ونكح عمّي أمّك ؟!

قال حدثني أبو علي الحسن بن زكريا قال... قال : قيل لأيّوب السّختاني : لم تكتب عن طاوسا؟ قال : أتيتُه فأصبحته بين ثقلين، ليث أبي سليم، وعبد الكريم الجزيري، فرجعت، ولم أكتب عنه.

1– سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسّرد العربي، ص 202–203.

2– إبن المرزبان، ذمّ الثّقلاء، ص 65–66

أما النّوع الثاني من السرود، فهو الأخبار التي تحمل في محتواها مجموعة إجابات ذات إجاءات وهدف بحيث تؤثر في المتلقي، حيث يكون الحوار مدار تلك الأسئلة والأجوبة بين قطبين لتحقيق التواصل، بحيث تكون أهمية ذلك الحوار في محاولة "الاقتراب من عتمة اللّغة...واللّغة تكتمل مفعوليتها وتنكشف قوّتها وطاقتها، وتتجلّى في بلاغة الحوار"[1]، تشكل تلك الأسئلة والأجوبة حوارا تفاعليا وفاعلا، تهدف إلى الصلح والإصلاح، والإثارة العقلية والوجدانية المتمثلة في إطفاء النّار التي ألهبت في نفوس وقلوب النّبلاء والفضلاء من كيد الثقلاء وسخطهم وبغضهم أشدّ البغض وهذا ما يفسح المجال لتأويل كل تلك الأوصاف الدقيقة للثقيل، وذلك لبلوغ غاية وحيدة وهي تعديل سلوك الثقيل، يلاحظ ذلك في هذا الخبر[2]:

"ولبعضهم في هذا المعنى"

وثقيل من الأنام غليظ جاءني زائر مع العُوّاد

قال: ما تشتكي؟ قلتُ له قُر بَك منّي فداوني بالبعاد

إن السخرية سمة بلاغية وأسلوب تخيلي غير مباشر، يحمل خصائص واقعية طبيعية من واقع المجتمع، ولتحقيق تلك الإفادة والمتعة في آن معا.

أما أصول مبادئ الحوار الخاصة عند طه عبد الرحمن، يضعها في مراتب الحوار المتعددة كالافتتاح والمواجهة والمدافعة ثم الاختتام، كما أنّ للحوار قواعد مختلفة لإنجاح عملية التخاطب المتمثلة في قواعد التعبير وقواعد التسليم وقواعد التوظيف وقواعد التعاون وقواعد الاختيار والمناسبة.

إضافة إلى ذلك وجود أصناف مختلفة للحوار كالمجادلة والمناقشة والمباحثة، وأن بنية الحوار الحجاجي، بنية مركبة من عناصر متعددة الدعوى وجملة القضايا الصادقة، التي تثبتها والعلاقة التي تدل على الصلة الحجاجية بين الدعوى وبين جملة من قضايا[3]، فالمخاطب حين يلقي خطابه يسعى من وراء ذلك الى إفهام المتلقي أو المستمع الذي بدوره يبادر بمجموعة من

1- هانس غيورغ غاداهير، فلسفة التأويل، تر: محمد شوقي الزّين، منشورات الاختلاف، 2006، ص 25.

2-جلال الدّين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص 51

3- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص270.

الاستدلالات المنطقية باستخدام المنطق الصوري، كي يتمكن من تخيل المعنى وحصوله في الذهن ليتم الحكم على ذلك الخبر إذا كان صادقا أو كاذبا بمراعاة الظروف الخارجية المحيطة بذلك الخبر لفهم السياق الخارجي بشكل عام ومنه الخطاب الآتي:

وقال دعبل بن علي رحمه الله[1]:

إني أجالس معشرا حمقى أخفهـــم ثقيـل

لا يفهموني قولهمويدقّ عنهـــم ما أقول

قوم إذا جالستهـــم صديت لقربهم العقول

فهم كثير بيوأع لم أنّنـــــــي بهم قليل.

إنّ الخطيب في هذا الخبر يصف الثقلاء بأناس حمقى، فقد يكون أخفّهم ثقيلا، والثّقيل هو الذي لا يفهم ولا يفهم عنه ما يقول، فإذا حادثه لا يرتاح له، لأنه لا يصلح للمجالسة والمؤانسة.

هنا نرى أن الكلام حمل قوتين: قوة حرفية وهي ما يتضمّن القول من معنى في صيغة العبارة، وقوة ثانية تكون متضمنة في معنى العبارة الحرفية، وهي: عدم احتمال الثقيل، فقد أشار البلاغيون العرب الى القوة المتضمنة في العبارة الواحدة، وهو ما يعرف بالاستلزام الخطابي الذي درسه العلماء العرب في إطار الأغراض الأصلية والأغراض الفرعية.

استعمل الشاعر في وصفه للثقيل بنية استدلالية، تشكلت من خلال استعماله عبارات متعددة ليدل بها على قول واحد (دال على مدلول)، وهو لا يرغب بمجالسة الثقيل، فالمخاطب هنا قام بخرق قاعدة الكم (كم الخبر) فينشأ عن ذلك دخول عبارته في التدليل الواحد بمجموعة من الأقوال وهو ما يسمى "الفئة الحجاجية" (classe argumentative).

تتعدد صفات الأحمق فإذا قام أحد بوصفه، فلا يجري على الواصف أن يحدد صفاته بعبارة واحدة، وردت في المصنف أخبار كثيرة يصف فيها الأدباء والحكماء الحمقى والمغفلين منها: [2]

1- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص26.

2- الحافظ الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، شرحه: عبد الرحمن الأمير مهنّا، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1990، ص25-38.

– قال ابن الجوزي: «الحمق فساد في العقل أو في الذهن، وما كان موضوعا في أصل الجوهر فهو غريزة لا ينفعها التأديب، وبعد فإن النّاس يتفاوتون في العقل وجوهره ومقداره ما أعطوه منه فلهذا يتفاوت الحمق».

– ومن صفات الأحمق: صغر الأذن، ويعرف بمشيه وترددّه، وكلامه أقوى الأدلة على حمقه.

وفي التحذير من صحبة الأحمق: قال عليه السلام: «تواخي الأحمق فإنه يشير عليك ويجهد نفسه عليك، فيخطئ وربما يريد أن ينفعك فيضرك، وسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه وموته خير من حياته».

وقال ابن أبي زياد: قال لي أبي: « يا بني، الزم أهل العقل وجالسهم واجتنب الحمقى فإني ما جالست أحمق فقمت إلا ووجدت النقص في عقلي».

نجد كذلك هذا التعدد في الصفات في كتاب "ذم الثقلاء" في مثل هذه الأخبار:

" قال، حدثني عبد الرحمان بن محمد، حدثنا يحي بن حبيب، أنشدني بعض الشعراء:

" إذا أبصرت شخصك قلت: شخصٌ خليق بالحياكة والحجامة

وإن أبصـــرت وجهك قــلت: وجه حقيق بالنحامة والنخامة[1]

" قال أنشدني عبد الله بن نصر، قال، أنشدني أبو سعيد الأهوازي:

لشؤم بخت، وقضم قت وألف سبت وأربعاء

ونقل صخر، ونتف صدغ بماء صمغ ومومياء

أهون من أن تراك عينــي تمشي صحيحا على الفضاء

حدّثنا محمد بن زيادة الضبي عن أبي عبد الله، عن الأصمعي، قال، قال ابن أبي طرفة: مجالسة الثقيل حمّى باطنة"[2]

هذا التعدّد في الوصف يحيل على معنى وحيد وشامل وهو أن العبد الذي يحمل هذه الصفات، لا يمكن أن يكون شخصا عاديا فيستحيل مجالسته أو حتى التقرب منه، فيعبر

[1]– ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص68–69.

[2]– المصدر نفسه، ص62–63

المتخاطبون عن أراءهم حول الثقيل بذكر حجج قوية تتمثل في وصف هيئة ومشيه، وظله وحتى كيفية إطلالته على أناس أخفة، هذا التعدد في الوصف هو ما يسمى عند " بيرلمان" (بالإطناب) يستعين المخاطب بالحجج عن طريق الإطناب ليحدث به الانفعال والاستجابة فهو طريقة عرض بطيئة للحجج، ذلك أن الخطيب يخاطب تقيلا، لأنه شخص بطيء السمع والفهم، ويكثر العبارات لكي يوضح الفكرة له، لذا يعمد في حكيه إلى ذكر عبارات ثم يشرح، وذلك في موضوع واحد أو مناسبة واحدة وفي زمن واحد.

من نماذج الإطناب في الخطاب الحجاجي هذا الخبر:

قيل لجالينوس بم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ قال لأن الرجل الثقيل إنما ثقله على القلب دون الجوارح، والحمل الثقيل يستعين فيه القلب بالجوارح[1]، فهو يوضح لسائله أن الثقيل هو كالحمل الثقيل إذا حملته، وإذا جالسته يضرّ كل جوارح الجسم بما فيه القلب. في هذا الخبر يوجد إطناب، وذلك بوجود عدة أوصاف للثقيل.

كما يعمد المخاطب في أخبار الثقلاء إلى التحاجج بالتمثيل، اهتم بيرلمان كذلك (بالتمثيل) في الحجاج، فالعلاقة الموجودة بين عناصر التماثل هي علاقة (أ) بـ (ب) التي تمثل تشبه وعلاقة (ج) بـ (د) التي تمثل المشبه به، فعلاقة التمثيل حسب " بيرلمان" هي نتاج التفاعل والاندماج الحاصل بين أركان الموضوع، أي بين البنيات التي تمثل ذلك التمثيل. يظهر ذلك في الخبر الذي روي عن "جالينوس هذه العلاقة في البني تبين عناصر التمثيل: فعلاقة الثقيل بالبغضاء كعلاقة الحمل الثقيل على القلب، ويمكن أن نوضح ذلك على الشكل الآتي:

(أ)- الثقيل

البنية الأولى

(ب)- البغضاء

(ج)- الثقيل

البنية الثانية

(د)- ثقيل على القلب

[1]- جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، ص27-28.

1-2-متعة السّرد:

طغى الأسلوب الهزلي في كتابات "محمد بن المرزبان"، حيث كان دائما يبرز في نفسيته نزعة هجائية وساخرة على نحو كتابه السّاخر في "تفضيل الكلاب على ممّن لبس الثياب"، ومثله مثل كل النصوص الهزلية (كتاب البخلاء، الحمقى والمغفلين)، وأخرى تناسب هذا النّوع من النّصوص، وهذا النّوع من النص الهزلي يحمل أخبار تثير الغرابة والفكاهة، كما سعى "ابن المرزبان" في كتابه "ذم الثقلاء" أن يزاوج الهزلي بالجدّي على الرّغم من أن كتابه يثير الضحك والمتعة، إلا أنه يهدف في حقيقة الأمر إلى إصلاح الذّات السّخيفة والمعتوهة، إنها طريقته في الكتابة لإصلاح ذات البين والنفوس البغيضة، فالهزل وسيلة ناجعة للوعظ، بسبب وجود وظيفة بلاغية ومالية، ولو كانت نصوصه تحمل بعض اللّبس والتعقيد في سرد الأخبار، «فالخطاب التفكّهي يفقد الفصاحة والجزالة واستخدامه لنمط من الحكي العاري، ولكنّه عربي شبيه باللّبس، ذلك أنه يتملك وسائله الخاصة التي تنسج بلاغته»[1].

إن استخدام هذا الأسلوب في مثل هذا النوع من النصوص الخطابية السّردية هو ضرورة حجاجية تواصلية، من هنا تظهر أهمية تلقي النصوص وتأويلها في مقامها الأوّل، أي الإسهام في تلقي النّصوص: "في ضوء مفاهيم بلاغة التصوير التي تمنح الأولية للسيّاق الداخلي للنّص الذي ليس من حيث هو بناء مغلق ذاته، ولكن من حيث هو تكوين غير منفصل من متلق يسعى إلى ربط النّص بمقدرته التأويلية التخيلية"[2].

من هنا نستوعب مقومات الإستراتيجية التخاطبية بين المرسل والمتلقي عبر صياغة أدوات ووسائل لبلوغ مقاصد الخبر في مستويات الخطاب الهزلي الإمتاعي، وذلك بتوافر تقنية نقل الكلام أو الخبر من شخصيات واقعية وفاعلة تسهم في توليد "سلطة سردية إبداعية تنم بفوارق جوهرية التي تصوّر النص وما يتفرّع عنه"[3]، لذا فإن إتباع إستراتيجية مناسبة لتحقيق القصد وبلوغ التأثير في الغير، يلزم على القارئ، لتلقي وفهم النص الاستعانة بعدّة مراحل تقوده إلى استيعاب مضمون

1- محمد مشبال، بلاغة نادرة، دار جسور للطباعة والنشر، ط2، طنجة، 2001، ص 18-19

2- سليم سعدلي، تشكلات السّرد السّاخر في المنام الكبير، ص 2181

3- مريم فرانسيس، في بناء النص ودلالاته، نظم النص التخاطبي الإحالي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،2001، ص 87

النّص بتتبّع مراحل لكشف مقاصد في نهاية كل نص أو خطاب حسب وجهة نظر كل متلق هذه النصوص، من الوسائل الدّلالية التي هي حاضرة في أخبار الثّقلاء ذلك الحوار السيميائي المنطوق بالإشارة وهي وسيلة بلاغية التي شكّلت مفهومها السيميائي العام[1].وهي من الدّلالات التي تعبّر عن المعاني بالمنطوق أو بالحركات، فتكون الإشارة باليد أو الرأس و"بغير ذلك من الوسائل التي تبلغ المعاني إلى المتلقي كالرّدع والوعيد والغزل والتحذير واستدعاء التهكّم"[2]. من هذا المنطلق نستطيع القول أنّ استعمال الدلالة السيميائية تساعد على بلوغ القصد من الخطاب، إن سياق العلامات يلعب دورا في فهم مقاصد المتكلم.

إنّ البنية السردية في الخطاب الإخباري الإمتاعي لها متعة بالغة، ويرجع "ابراهيم صحراوي" ذلك في أنّ «المسرود له (المتلقي) للحكاية أو القصة أو الخبر ينقطع عن العالم الحقيقي المدرك وينتقل الى عالم آخر ما إن ينخرط في سماع القصة»[3].

من القصص الممتعة نجد مثلا قصص البطولات كالشجاعة، كما نجد قصص الطرف والنكت والفكاهات، التي ترد في أيام العرب وجميع أخبارهم وأشعارهم، التي صيغت في مختلف الاحاديث والمناسبات في مجالسهم وأسمارهم، لذا تكمن وظيفة السرد الإمتاعي في التسلية والترويح عن النفس، فقد ورد حديث شريف رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلّم: «روّحو القلوب ساعة بعد ساعة، فإنّ القلوب اذا كلّت عميت»[4].

فما دور السّياق في حجاجية السرد الإمتاعي؟

وردت جميع أخبار الثقلاء مدعّمة بالشواهد والأحكام والأمثال والصور البلاغية، وكانت غايتها النصح والإرشاد وتقريب المعنى إلى الأذهان وهذا ما يغلب على طابع النصوص السردية التراثية، نأخذ بعض النماذج في أخبار كتاب (ذمّ الثقلاء) [5]:

1- محمد مشبال، البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، المغرب، 2010، ص 77.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخناجي، القاهرة، د.ت، ص 77-79

3- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص146.

4- م.ن، ص150.

5- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص63-77.

- حدثنا ابن المرزبان: حدثني أحمد بن زهير، حدّثني عبيد الله بن عمر، حدّثني أبو احمد الزبيري، حدثنا سهد بن أوس، عن بلال بن يحي العبسي عن حذيفة، قال: إنّ الرجل ليدعوني، فأقول: إنّي صائم ولست بصائم.
- حدّثنا لو (...) ن- حدّثنا إسماعيل بن هارون قال، قال المأمون في ندين كان له، وكان يستثقله:

وديم كأنّه غصص المـــــو ت كثير المراء يشجي الخليلا.

يتغنى وليس يحسن شيـــــئا لا، ولم.....

ويصلي في غير وقت صلاة ليس إلاّ لكي يكون ثقـــــــيلا.[1]

تفيد هذه الأمثلة في معاناها العام الإصلاح وتوعية الناس وتحذيرهم من مصاحبة الثقيل وتعدل سلوكه، إنه شخص لا يستأنس به في المجالس الخاصة والعامة، ما دام ثقيلا على غيره فقد يشير الخطيب إلى صفات الثقيل بأقوال مباشرة لا تحتاج الى الشرح والتوضيح، وتكون على شكل أشعار ينشدها في قالب استعاري تهكمي يدعو القارئ الى التساؤل والاستفسار عن أسباب ذلك وما وراء ذلك القول من معنى أبلغ وأقوى مما كنا نتصوره، كثير ما يلقي الخبر على المخاطب بعدة طرائق ومسالك فيشكل لدى المخاطب صفة إلقاء الخبر في الأضرب الثلاثة وإخراجها على مقضى الحال.

يقول أحمد الهاشمي إنّ الأحوال تقتضي العدول على مقتضى الظاهر، ويورد الكلام على خلافه لاعتبارات ثلاثة يملكها المخاطب في أثناء الأخبار، وهي[2]:

- ما ينزل العالم بفائدة الخبر أو لازما، أو بهما معا، منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب علمه، فيلقى الخبر كما يلقى على الجاهل.
- ما ينزل إلي الذهن منزلة السائل المتردد، إذا تقدم في الكلام ما يشير الى حكم الخبر.

1- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 77.

2- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص58.

- ما ينزل منزلة الخالي المنكر: إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار كقول خبر سعيد الخدري حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم بأبغضكم الى الله؟ قال فظننت أنه سيسمي رجلا، فقال: إنّ أبغضكم الى الله أبغضكم إلى النّاس».

هذا الخبر يقتضي أيضا تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازما، منزلة الجاهل لعدم جربه على موجب علمه، فيسأل الرسول صلى الله عليه وسلم الحضور أشدّ الناس بغضا الى الله عزّ وجل.

وضع طه عبد الرحمن في النص الحجاجي نماذج للتواصل وأنواع الحجج المستعملة، يرجع التواصل الى ما يدل على العموم والإجمال والغموض والإبهام فيعرّف لفظ التواصل في معان ثلاثة مختلفة[1]:

1. نقل الخبر وتسميته (الوصل): تفيد هذه التسمية معنى الجمع بين عنصرين بأمر مخصوص هو الوصل الذي يعني الخبر.
2. نقل الخبر الذي هو المتكلم والإيصال.
3. نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر، الذي هو المتكلم، أطلق على هذا الضرب من النقل بـ (الاتصال).

يرى طه عبد الرحمان أنّ الحجاج لا يدور على الألسن مثلما يدور عليهما لفظ التواصل وأن التواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان، وبيّن أنّ وظيفة الحجة التواصلية هو وظيفة وصل، حيث تقوم هذه الحجة في أنموذجها الوصلي على «البناء الاستدلالي المستقل الذي تكون عناصره موصولة وصلا تاما، كما لهذه الحجة وظيفة إيصال لأنه يجعل منها فعلا استدلاليا يتوجه به المتكلم إلى المستمتع»[2]، يتبين من هذه الوظيفة ما يجمع على خصائصها المتمثلة في تجريدها من الفاعلية الخطابية، ويقع هذا التجريد عند "طه عبد الرحمان" بطريقتين هما:

1- محور الوظائف المضمرة: وهي أنّ لكل من المتكلم والمستمع أدوار خطابية يقوم بها وهو ما يستعمل من أدوات لغوية كأسماء الإشارة وأسماء الضمائر، يقوم الانموذج

1- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص254.

2- م.ن، ص.ن.

الوصلي للحجة، باستدلال هذه الأسماء السياقية والمقامية بأسماء وأوصاف المتكلم والمستمع في إيراده الحاجة بالرجوع لسياق معيّن.

2- **المعاني المضمرة:** يكون إظهارها بوجود حجة طبيعية التي تلجأ إلى الإضمار لوجود معارف مشتركة بين المستدلين بها، وبالأنموذج الوصلي يتم بما تحمله الحجة من غرض وليس في المعاني.

وهذه الطريقة في التواصل معتمدة في كتاب "أخبار الثقلاء"، فقد عمد المتحاورون إلى استعمال أدوات لغوية لإيصال الفكرة إلى أذهان المتحاورين، ذلك بمراعاة المعارف المشتركة بين المخاطب ومتلقيه، قد يحدث وأن يفهم المتلقي أغراض المتكلم من سياق القول والغرض منه، ليتم إيصال ذلك القول إلى ذهن المستمع. كما أن بعض خطابات "أخبار الثقلاء" أين يلجأ فيها المتحاورون إلى الإضمار فقي الكلام لكي يظهر للآخر المعنى الخفي، بسبب وجود معارف مشتركة بينهما بذلك يصل المتحاور إلى هدفه وهو الإقناع والاقتناع. نلاحظ ذلك مما يأني:

حدثنا أبو محمد، حدّثني جعفر بن يعقوب، حدثني احمد بن إبراهيم عن جعفر الأحمر، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، قال: عيادة حمقى القراء أشد على أهل المريض من مرض مريضهم، يعودونه في غير وقت عيادة، ويطيلون الجلوس.[1]

"حدثنا أبو العباس المروزي، حدثنا أبي، قال: كان ابن عائشة إذا بصر إلى ثقيل، قال: صنجة الميزان"[2] حيث تحوي هذه الاخبار معاني مضمرة لا يشي بها المخاطب بحيث يستخدم الضمير الغائب ليتحدث عن الشخص الذي يطيل الجلوس عنده، ليجر السامع غلى تحويل ضمير الغائب (يعودونه – يطيلون الجلوس) ليعبر عنه بالذات، أي عن الشخص الثقيل الذي يطيل الجلوس عند المريض.

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 66.

2 - م.ن، ص 60

وردت في نصوص رسالة (إتحاف النبلاء) مقاطع مختلفة تجمع فيها النكت والطرف والمواعظ، تجر السّامع إلى الإنصات لها بهدف الترويج عن النفوس في مجالس الجد والكد، منها ما يأتي[1]:

« ونقش رجل على خاتمه: أبرمت فقم، وكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه، وقال اقرأ ما في هذا الخاتم.

– وقال سهل بن هارون: «من ثقل عليك بنفسه وغمك بسؤاله، فأعره أذنا صمّا وعينا عميا».[2]

تتم عملية الإقناع في هذه المقاطع بشكل منطقي وذكي، حيث يكون لهذه المنطقية في التعبير دور حجاجي مهم في تحصيل المتعة لدى المتلقي وبخاصة ما تعلق بالحجج الجاهزة كالشواهد الدينية والاجتماعية والأخلاقية، مسلم بها في أعراف كلا القطبين، كما يصل المتلقي بها إلى نتائج شبه نهائية، فكلما كان الاستدلال والبرهان قويا كانت النتائج كثيرة كيفما تعددت المواقف بين المتخاطبين، ومما جاء فيه سوق الاستدلال الخطابي الذي يناسب الخصم، فهذه الطريقة مناسبة لتغيير حكم المتلقي، فالآيات القرآنية أو القول المأثور أقوال مثيرة تحقق الإقناع، بذلك يتم إفهام الآخر على سبب النفور من الثقلاء والمغفلين والحمقى والبخلاء.

أما الآليات شبه المنطقية، التي يستعملها المتخاطبون فإنها تتمثل في السياق الخطابي الخاص الذي يشتركون فيه ولغة خاصة بأحوال المتخاطبين، فلا يفهمها سوى أولئك الذين تواضعوا عليها[3].

وهو ما يسمى بالخطاب التلميحي، هذا الخطاب نجده مثلا في خبر حماد بن أبي سليمان: «من خاف أن يكون ثقيلا فهو خفيف، ومن أمن أن يثقل ثقل».

«روي عن أبي أسامة قال: سمعت هشام بن عروة يقول لرجل: أنت أثقل من الزواقي، فسألت عنها الفراء، فلم يعرفها، فقال رجل من جلسائه، كانت العرب تسمر فإذا سمعت زقاء الديكة: استتثقلتها لمجيء الصبح فأعجب ذلك الفراء.»[4]

1– جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص28–29.

2 – المصدر نفسه، ص28–29.

3– عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، ص425.

4 – جلال الدين السيوطي، م.س، ص23

وقال شبرمة:

ومن الناس من يخف ومنهم كرحى البزر ركبت فوق ظهري.

وقال حبيب الطائي:

يا من تبرمت الدنيـــــا بطلـعته كما تبرمت الأجفان بالسّـــــــهد

يمشي على الأرض مختالا فأحسبه لبغض طلعته يمشي على كبدي

لو أنّ الناس جـــزءا من سمـاجته لم يقدم الموت إشفاقا علـــى أحد[1]

حين يوجه المرسل خطابه إلى الثقيل توجيها تلميحيا بدافع احترام قواعد التخاطب التي لزم عليه عدم استعمال خطاب مباشر، وكذا بدافع عوامل المكانة والسلطة ومراعاة عنصر التأدب في الحوار، فلا يجوز لخطيب بتواجده في مجلس عام ومحترم أن يتلفظ بعبارات غير لائقة تحط من شأنه أمام الجمهور، وهذا ينطبق على خطاب هشام بن عروة حين يقول لرجل «أنت أثقل من الزواقي».

في الخبر الذي روي عن سفيات الثوري أنه خاطب الثقلاء «إذا كان منهم عشرة أخفة وكان معهم ثقيل واحد فيثقلون عليه كلهم»، يكون بدواعي إستعمال المجاز في مثل هذه المواقف اجتهادا من المرسل لنقل خبره الى المتلقي بطريقة تلميحية تعبر على حقيقة الثقيل، فيجعل الثقيل يحس بألم الإهانة فيقول الرّازي في هذا الشأن: «إنّ العدول عن الحقيقة إلى المجاز هو إمّا لأجل اللّفظ أو المعنى، أو لهما معا، وأمّا الذي يكون لأجل المعنى، فقد ترك الحقيقة إلى المجاز، لأجل التعظيم والتحقير، ولزيادة البيان، ولتلطيف الكلام... وأما تلطيف الكلام فهو أن النفس إذا وقفت على تمام الكلام، فلو وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق إليه أصلا، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض، فإن القدر المعلوم يشوّقها الى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم، فيحصل لها سبب علمها بالقدر الذي علمته –لذّم وبسبب حرمانها من الباقي– ألم فتحصل هناك لذّات وآلام متعاقبة، واللّذة اذا حصلت عقيب الألم، كانت أقوى، وشعور النّفس بها أتمّ»[2]. ويتجلى ذلك في هذا الحديث:

---

[1] – جلال الدين السيوطي، إتحاف النبلاء، ص33.

2– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص371.

حدثنا حارث بن أبي أسامة عن أبي الحسن المدائني، قال، قال ابن السماك: كم من رجل لو قدرنا أن نتحمّل ما به فعلنا وآخر نحبّ أن يموت.[1]

2. الخرق البلاغي للخبر:

إن مظاهر الخرق البلاغي التي اتخذها الرّواة في أخبار الثقلاء كوسيلة للتعبير بذكر أخبار ونوادر الثقلاء، فتعد السّخرية وسيلة تقدم من خلالها معالم الهزل والتهكم، فالخرق البلاغي يحيل على الغرابة في الألفاظ، ويخلق في الآخر صفة الدهشة والحيرة.

تقوم الأقوال السّاخرة على استفزاز الثقيل وردعه، وبذلك يتحوّل الكلام النثري العادي إلى الكلام النثري المجازي، بحيث يلفت انتباه المتلقي. تقوم أخبار الثقلاء في نصوص "ابن المرزبان" على سرد وقائع مباشرة، بل كانت تجمع على سرد تخيّلي باستعمال إستعارات تهكّمية تخرج بها طابع الخطاب التقريري المباشر إلى التخيلي غير المباشر. وهي من بين الإستراتيجية المتوخاة من طرف النّبلاء والفضلاء، لإنشاء هذا الخرق يقوم الإخباري على سرد حكايات ذات طابع تهكّمي يدعو إلى الضحك والمتعة والإفادة في الوقت نفسه، إذ يكون للسخرية بعد أخلاقي وتهذيبي، ذلك حين ندرجه ضمن السياق العاطفي، حيث تستريح بها العقول والنفوس، وتفتح آفاق التعقّل والإصلاح.

2-1- استراتيجية السخرية (الخبر التفكّهي):

إن "محمد المرزبان" كان يحدد في نصه السردي ملامح وصفات الشخصيات المشاركة والفاعلة في الخبر في حلة أدبية شعرية رائعة، وفي نصوص نثرية ذات إتقان في الوصف والتقرير، ذلك بالتدقيق في المعطيات التاريخية في فضاء وزمن سرديين، فيروي الأحداث الهامة والمركزية في الخبر الواحد التي جعلت "ابن المرزبان" يبدع في وصف الثقيل، وذكر روايات تروي عن تاريخ العرب في ذلك العصر، بمشاركة أعلام أدبية وعلمية، وشعراء وشخصيات اشتهرت بالفكاهة والنوادر والطرائف، التي أخذت من حياتهم، وجل الحكايات التي رويت في عصر يسوده الخلاف السياسي، وظرف البعادة والمجون والتضارب على المكانة الاجتماعية، كما وجدت ظاهرة

1 - ابن مرزبان، ذم الثقلاء، ص54.

المنافرات في الشعر كالهجاء بين الفرزدق وجرير، مما خلق بين ذلك الشخصيات نزعة هجائية ساخرة.

نلاحظ في مثل هذا الخبر أنه غلب عليه طابع السخرية في حوار طريف دار بين الأصمعي وعمر بن العلاء أين روى عن الأحنف بن قيس، قيل له :

"ما ألذ المجالس؟ قال: ما سافر فيه البصر، وأبدع فيه البدن، وكثرت فيه الفائدة، وعدم فيه الثقيل"[1] انطلاقا من هذه الطريقة في التعبير، يتبين للقارئ لأول وهلة صفة الغرابة في الوصف والتقرير، وهو ما يدعو لإثارة أسئلة مباشرة، يتم الإجابة عنها بأسلوب غامض مثير للتأمل فيه والاستفسار عن معانيه، وما هو الدافع إلى ذكر هذه التفاصيل والتعاليق على الثقيل في كل مناسبة أو حوار يحدث في أثناء محادثة الثقيل، إن للسخرية هدفا في بناء استراتيجية كلامية لإنجاح عملية التواصل، فهي تحيل على المعنى الضمني (غير الحرفي) للعبارة الساخرة التي يتوجه به إلى الآخر، نختلف معه في جميع الميادين، لذلك يصنع الراوي في حكيه إيديولوجية أدبية وفنيّة بمراعاة قواعد المحادثة التي وضعها "غرايس".

ورد خبر الذي رُوي عن منصور بن الحجاج، كان إذا رأى بغيضا قال: "اللهم أقتله، وإن كان قتله يقتلني فاقتله واقتلني". إن الصيغة التعبيرية للقتل تحيل غلى خرق بلاغي، تترجم أحاسيس منصور بن الحجاج الذي يصف فيها حالته في صورة تخييلية، يضع القارئ في موقف حرج، ما إن كان يتمنى حقا الموت، ويموّت الله معه العبد الثقيل، فهنا يتساءل القارئ إن كان تمنّي الموت قد يساعد على التخلص من الثقيل. هنا تظهر الحبكة التي صنعها الراوي ليحدث تراجيديا، لأن أكثر العناصر أهمية هو بناء الأحداث "الحبكة" لأن التراجيديا–بالضرورة– لا تحاكي الأشخاص، ولكنها تحاكي الأفعال، والحياة بما فيها من سعادة وشقاء"[(2)]. أي أن كل ما نتعرض إليه من دراما، يكون عنصرا فاعلا لتصوير ما تتعرض إليه الشخصية وعلاقتها بالفعل الذي يعكس مزاج تلك الشخصية، فهو وصف جماي مفصل في الخرق البلاغي "هذا الوصف المفصل تتجلى وضيفته البلاغية في التمهيد للحادث الذي سيحوّل الحكي، على نحو ما تتجلى وظيفته

1– جلال الدين السيوطي، اتحاف النبلاء، ص 36

2- أرسطو طاليس، فن الشعر، تر: إبراهيم حماده، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة، دت، ص 97.

أيضا في خرق النمط السائد في السخرية"[1] حيث يسعى المخاطب من وراء ذلك، دفع المتلقي الى تخيل المعنى الحقيقي للعبارة الساخرة.

يرتكز الخرق البلاغي في أخبار الثقلاء على نهج تقنية يقودها "التضمين التّهكمي الذي يمكّن المخاطبين من الاستخفاف بالثقلاء باستخدام عبارات تتوجه إلى السخرية التي ينتج عنها الخطاب التهكمي الذي يخضع للمعيار البلاغي، والذي هو صنيع "إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال"[2].

يمكن أن نلتمس بعض الأقوال التي وردت فيها هذه التقنية التهكميّة فيما يأتي:

"يقول : حدّثنا محمد بن إسحاق عبد الرحمان المدائني، حدثنا سليمان بن أبي شيخ، حدثنا أبو الصغدي الحارثي، قال أتيت عوانة، بعد أن كُف بصره، فسلّمت عليه ثم قلت : إن الله تعالى لم يسلب عبدا شيئا إلا عوّضه مكانة فما عوّضك الله من بصرك؟ قال : الطويل، العريض، يا بغيض، قال : قلت وما هو . قال :ألا أراك، ولا تقع عيني عليك"[3].

نلاحظ أن "عوانة" استعمل أسلوبان متعارضان للإجابة عن سؤال "أبو الصغدي" الحارثي حين سأله عن الذي عوّضه الله مكان ذهاب بصره الأول: أسلوب مباشر في قوله: "الطويل العريض، يا بغيض"، والثاني بأسلوب غير مباشر (التلميح) وهو في قوله : "لا يراه ولا تقع عينه على ذلك الثقيل، بحيث تولد عن إجابة عوانه سياقان متلازمان يفهمان من سياق العبارة، وكانت الإجابة الثانية بمثابة نهاية المتتالية السّردية التي كانت معنى نقيض الإجابة الأولى.

"قال، أخبرني محمد بن علي قال: دخل رجل على عليل يعوده، وكان العليل يبغضه ويستثقله، فقال له، وقد أبرمه في المسألة، كيف وكيف تجدُك، وهل تعرفني. قال: فقال له المريض، وهل يخفى بغضك على أحد؟"[4].

"حدثنا أبو محمد التميمي، حدثنا محمد بن إسماعيل بن... إن الوارق، حدثنا ابن فضيل عن عبد الله بن شبرمة، قال: سمعت الشعبي يقول:

1- محمد مشبال، بلاغة السرد، ص 62.

2- ينظر: يحي بن حمزة العلوي، الطراز، ج3، ص 162، نقلا عن محمد مشبال، م.س، ص 35

3- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 108

4- م.ن، ص 110

من الناس من يخف ومنهم كرحى البرز ركّبت فوق ظهري[1].

"حدثنا أبو محمد، حدثنا محمد بن العباس قال، قيل للأعمش ما تصنع عند مطهر؟ قال: آتيه كما آتي الحشّ إذا كانت لي إليه حاجة"[2].

في هذه الأمثلة يلاحظ تمازج أسلوبين هما الخبر والإنشاء، بحيث وضّح عبد الله صولة أن هذين الأسلوبين يكونان متقابلين ومتعارضين، أي يمكن أن نفرّق بين ما هو استفهام، أي "كهجينة"، كما ترى ذلك "أركيوني" أو السؤال "La question"، والإثبات أو التقرير "L'assertion" فهما عملان لغويّان متقابلان لكنّهما في الحقيقة يشكلان سلما واحدا، قائما على التواصل والاسترسال، قال "صولة" إن في مثل هذه الملفوظات قد تتميز بالتكبر وهو من الفئة التي لا يحبّذها الله ورسوله، وأن أحاسنهم خلقاهي الفئة المحبوبة عند الله ورسوله، وكان تركيب الجملة الاستفهامية من الحسن إلى السيء.

يقدم أسلوب السخرية لدى المؤلف طابعا أدبيا في نهج الكتابة لإنتشار النزاعات وفساد أخلاق البشر، جعل أسلوبه بالتهكم والهجاء، فكان له أن يقدّم أنموذجا عن تلك الحياة المجونية الممزوجة بوقائع وأحداث تشكل ما يسمى بالخطاب الفكاهي، فكان يسرد أخبار الرّواة الذين يستثقلون فئة مهمشة في المجتمع العرافي، حيث كان الرّواة يتداولون مختلف الرّوايات التي وردت في مجالس متنوعة يسودها جوّ الجدّ والترف في آن معا[3].

يمكن أن نستخلص من هذا العنصر أن مقاصد الخبر تتحدد باعتبار المصنّف أو المؤلّف الذي هو ملق للخبر، ونجد المتلقي هو الذي يحدد هذه المقاصد بعد عملية تأويل الأقوال التي يتلقاها أو يسمعها، فالعلاقة الموجودة بين المتكلم والمتلقي هي التي توجه وتحدد المقصود من الخبر، على أساس أن المقاصد عند "سعيد يقطين" ذات طبيعة معرفية أو وجدانية أو حسيّة"[4]

1- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 63

2- المصدر نفسه، ص 73

3- أحمد عبد المجيد خليفة، فن الفكاهة والسخرية عند شعراء المملوكية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دت، ص 24-26

4- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 200

بهذه الأوصاف نتمكّن من تمييز أنواع الخبر الهزلية، التي تقيد دلالة الانفعال والترويح عن النفس، التي نجدها في الأنواع السردية، والتي تروي حكايات ونوادر البخلاء، وأخبار الحمقى والمغفلين...

2-2- استراتيجية التهكم:

يعد أسلوب التهكم آلية من آليات التعبير غير المباشر، يستعمله المرسل في خطابه لنقد الآخر، سواء أراد نقد ذواته أو سلوكه، ويمكن أن نطلق عليه بـ "السّخرية" في مواضع حيث يهدف فيها "المعنى الحرفي الإيجابي، المعنى المقصود، فيؤدي إلى تقويم نقدي أقل، وعلى العكس من ذلك، ففي حالة الثناء يتشرب المعنى الحرفي السلبي، المعنى الإيجابي المقصود"[1]بحيث يضحى التّهكّم استراتيجية غير مباشرة يستعين بها المرسل في تشكيل العمليات الدهنية، ثم تتطور لتتجاوز العبارة اللّغوية في الملفوظ بتحقق بها القصد من كلامه، يمكن أن نخلص ذلك في رأي أحمد المتوكّل "بأن القوة الإنجازية الحرفية مدلول عليها بطريقة صوغ العبارة، والقوّة الإنجازية المستلزمة تتولد عن القوة الأولى، طبقا لمقامات معيّنة"[2]. ميّز أحمد المتوكّل بين القوّتين من خلال القوّة الآنجازية الحرفية للعبارة اللغوية في مختلف السياقات، فحين تبقى القوة الإنجازية المستلزمة تستلزم بما يواكب المقام، بحيث لا تتولد إلا في طبقات مقامية معينة،" فالقوة الحرفية تختلف عنها في أخدها مباشرة من حيث صيغة العبارة ذاتها"[3].

يستعين المرسل في هذا الموضع ببعض العلامات اللّغوية للوصول إلى الهدف من الخطاب وبخاصة ما نجده في الخطاب الذي يعبّر فيه المرسل عن قصده بوجود مؤشرات صوتية تكون عادة أداة مصاحبة، فلا يكتفي المرسل بتوظيفه، بل يستعين بالإختبار بين التأويل الحرفي أو التأويل التهكمّي بوجود معلومات أخرى خارجية كالمعرفة السياقية[4]، كما رأى الشهري أن عدم مطابقة عناصر الخطاب بعناصر سياقه من الأدوات، التي يمكن أن يعتمدها المرسل وذلك عبر

1- Shelly Dems, et Ellen Winner : Obligatory processing of literal and nonliteral meanting verbal irony, journal of pragmatics, volume 31, n° 12, 1999, p580.

2- أحمد المتوكل : آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، نقلا عن :عبد الهادي ين ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 370.

3- م.ن، ص 21-23.

4- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 420.

آلية التهكّم، بتداخل بعض الأنساق الثقافية المختلفة، أو إنتاج بعض الخطابات التي تتكون عبر طبقات تنظيمية، بالمقابل نجد أن "سيرل" "Searle" يرى أنّ صفة التهكّم في الخطاب بما فيها الاستعارة لا من معرفة آخر أو معرفة الأعراف، وأرجع ذلك إلى أن قواعد المحادثة وقواعد إنجاز الأعمال اللّغوية تكون كافية لتحقيق آلية التهكّم في الخطاب[1].

يقول الشهري إن آلية التهكم تستدعي الاستعانة ببعض العلامات لتوضّح قصد المرسل، إذ لا يستغني عند إنتاج خطابه، عمّا يوحي قصده التهكمي لا سيما في الخطاب الشفهي، فهناك مؤشرات كثيرة تعنيه على تعيين القصد تهكميا، منها المؤشرات الصوتية فإن "أغلب النظريات التي تعالج اللغة المجازية تدمج فكرة التّضاد في تلك التي يوجّهونها للتمييز بين الأقوال الحرفية والأقوال غير الحرفية... التي تشكل بها فكرة التضّاد أساسا لعدد من المصطلحات التي استعملت في عدد من النظريات التي تعالج كيفية فهم التهكم اللّفظي، مثل عدم الإخلاص التداولي، التنافر الإدعاء الاستلزام الحواري"[2].

عندما نقرأ خطاب أخبار الثقلاء، نرى أنه طغى عليه أسلوب التّهكم، وهذا ما نلاحظه في الخطاب الآتي[3]:

حدثني عبد الله بن محمد القنطري، حدثنا يحي بن أيّوب قال، قال يوما شعيب بن حرب حدثنا الحسن بن عمارة، فقال رجل من ناحية: آه ! فالتفت إليه شعيب وجعل يتبصّره، ويقول: من هذا؟ حتى حسبتُ إن رآه يضربه، ثم قال : شعيب، ما يسرّني أنّي حدّثت عن غير ثقة وأنّ لي عشرين عبدا مثلك.

من خلال هذا الخطاب نلاحظ أن هناك مناسبات التلفظ تقع في غير سياقها، حيث: "يعتبر عدم مناسبة الخطاب لسياق التلفظ من العلامات التي يمكن أن يعتمد عليها المرسل للتعبير عن قصده عبر آلية التهكم، باستثمار بعض الخصائص الثقافية غير المحددة، أو إنتاج الخطاب عبر طبقات تنغيمية معيّنة"[4].

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 420.

2- المرجع نفسه، ص 419

3- ابن المرزبان، ذمّ الثقلاء، ص 103-104

4- عبد الهادي ين ظافر الشهري، م.س، ص 420

يرى "سيرل" من جهة أخرى أن الاستعارة لا تتطلب أن ندرك خصوصيات العلامة المصاحبة أو غير ذلك، من الاياء وأرجع ذلك إلى قواعد الحوار وكذا كيفية إنجاز الأفعال اللغوية بحيث يعدّها كافية لتحقيق أسلوب التهكّم.

كان على الراوي في أخبار الثقلاء أن يبنوا حكيمهم وفق أدوات بلاغية، يستعين بها ليضفي على تلك الحكايات والأخبار صبغة غامضة، كي يفسح المجال للقارئ الضمني من استعمال مخيلته في فهم الألفاظ الغريبة، لأن تلك الأخبار تروى على السامعين باستراتيجية غير مباشرة يتوسل بها المخاطب لتغليط الطرف الأخر، باستعمال مسوغات تلمح على ذم الثقيل بكلمات هزلية ساخرة، التي تحمل في طياتها غاية بلاغية تجعله متأثرا بما يلقى إليه من كلام.

إن السخرية وسيلة ناجحة لتغليب الخصم فهي تتميز بصفة التعجب والتخيل " الذي يتميز بالحيل والمظاهر المتحولة التي لا تخلو منها السخرية"[1] فالخطاب البليغ عند العرب يسلك مسلك القبول إذا تمكن المتلقي من إيجاد تفسير لغريب الكلام وهو " رد البعيد إلى المألوف القريب"[2] هي من أساليب الإبلاغ لدى المتخاطبين في (أخبار الثقلاء)، لذا يستعين القارئ بقدراته الذهنية والعرفية ليصل إلى مقاصد المتكلم (المحاور له) وهذا ما نجده في الخبر الأتي:

أنشدني الأدميّ قال: أنشدني ابن المرزبان، قال: أنشدني أحمد بن عليّ:[3]

أنـــــت والله ثقيل وأنا أيضــا ثقيل

لك رأس فيه بوستين ولي عقب طويل

تتجلى المبالغة في وصف الثقيل في كلمة " بوستين" و"العقب الطويل"، حين سماع هذه الكلمات الغريبة يقع المستمع (المتلقي) في دهشة وغرابة لما يقال له، كما ورد في الخبر الذي روي عن إبراهيم بن محمد بن طلحة حين قال لأبي هاشم بن محمد بن الحنيفة: أما والله إني لأبغضك. قال: ما أحقك بذلك ولم لا تبغضني وقد قتل جدي أباك وجدّك ونكح عمي أمّك![4] وهي كناية عن السبب الرئيسي الذي يجعل المرء بغيضا، وهو القيام بجريمة في حق أخيه المسلم وهي قتل أحد

1- محمد مشال، بلاغة نادرة، دار جسور للطباعة والنشر والتوزيع، طنجة، 2001، ص27.

2- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح، محمود شاكر، مكتبة الخناجي، القاهرة، دت، ص146.

3- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص67.

4- م.ن، ص74.

أفراد عائلته فيصبح بالنسبة له عدو أبدي، لا يكمن العفو عن خطيئته، فلا تآخيه ولا تلاطفه هذه المنازعات تعدّ أكثر شيوعا في المجتمع العربي، خاصة حول العرش والخلافة السياسية وغيرها من الأسباب. كما أنها حيلة من حلل السخرية من الأخر عند العرب وهي نوع من المعاتبة بين الأشخاص.

نجد في خبر آخر كتب ابن الجهم يجيز ما قاله في بيتين من الشعر عن الثقيل:[1]

لو قابلته السعود صاعدة لحطّها بغضه إلى الأرض

قد كتب البعض فوق جبهته هذا ورب العباد من فرضي

هنا نجد بعض مواضع الإفراط في الوصف (الإخبار) لغرض المبالغة في مواقف الغضب ذلك لشفاء غليل النبلاء والفضلاء، عما يواجهونه من منافرات ومخاصمات عند مجالسة الثقيل.

3-البعد التداولي للسخرية:

من مستضرفات علم البيان عند "ابن الأثير" نجد التناقض أو ما يسمى "عكس الظاهر" أي ما يتلفظ به المتكلم ويقصده (أو يراد به العكس) فقال: "وحقيقته أن تذكر كلاما يحل في ظاهره على معنى ويراد به معنى عكسه[2] والملاحظ في نصوص (أخبار الثقلاء) أن السخرية ملمح التحاور والتفاعل بين العناصر المشاركة في الحديث (الخبر)، فإن الخطاب الساخر الذي ينتجه المتحاورين "يحيل على جملة من العناصر السياقية الخارجية التي تساهم في إنتاجها وتأويلها، مما يوجب ضرورة الإحاطة بكل الظروف المحيطة بها[3] فالسياق الخارجي له دور في بناء معنى النص بمراعاة الظروف المحيطة به، التي ينتج عنها عملية تأويل النصوص، وكذا أحوال المتخاطبين في تلك اللحظة التي تم التلفظ بالعبارات الساخرة التي تجر السامع الى استنتاج فحواها وما تحمله من معاني ضمنية، كي يساهم متلقيها في تطوير المحادثة ونجاحها. إذ تقول "فرانسواز أرمنكو" أن "التداولية تقوم بإدراك مدى أهمية التفاعل بين الأعضاء الحية باستخدامهم علامات

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص81.

2- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج3، مطبعة المجمع العلمي العراقي،1987، ص 88.

3- العمري آسيا، السخرية في كتاب الحمقى والمغفلين لابن علي بن الجوزي، مقاربة تداولية، مذكرة ماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2009-2010، ص 54.

وإشارات تساعد على فهم فحوى الخطاب وأثر الفعل عند إنجازه عن طريق دلالة جملة ما التي يتلفظ بها متكلم ما أثناء إلقاء خطابه، وذلك ما يعرف بكيفية تشخيص ألعاب اللغة أثناء التحاور بين المتخاطبين"[1] فباللغة نستطيع إنجاز المقاصد التي تعد جوهر العملية التواصلية.

يقول "عز الدين إسماعيل" إن "الأدب الفكاهي يقوم على عناصر، بعضها بمثابة المادة وبعضها يتحقق في بناء العمل الأدبي من هذه المادة"[2].

تعني المادة عنده الأفكار التي تبني هذا العمل، ويكون هذا البناء دالا على بعض عناصر الصورة، إذ يكون تصوير الأحداث في السرد الرّوائي جزءا من أجزاء محتوي ذلك العمل، وتكون الطريقة التي تنسق بها الأقوال أو الأحداث ذات تأثير فني في المتلقي.

يقوم السياق على إبراز الكلام الضمني، بوجود الظروف الخارجية المحيطة بذلك الخطاب خصوصا ما يتعلق منه بالخطاب الساخر، فقد استعان "ابن المرزبان" في نصوصه بالأسلوب الساخر التهكمي، فهو غني عن هذه الكتابة بلومهم وذمّهم ومخاطبتهم بشتى الصفات القبيحة ففضل عن هؤلاء القوم الحيوان الذي هو الكلب وهو الذي يراه البشر من أقبح وأبغض الحيوانات على وجه الأرض.

عالج هذه الظاهرة بأسلوب ساخر، وبكل أوصاف وأساليب الهجاء، نهج منهج الكتابة نفسه في كتابه "ذمّ الثقلاء" بحيث جمع مختلف النصوص والحكايات، التي تقوم على مخاطبة الثقلاء بطريقة ساخرة، بواسطة بناء دلالات وراء تلك العبارات، قسّم "الآمدي" الدلالات، التي يحملها سياق الخطاب إلى ثلاث : دلالة التنبيه، والإيماء، دلالة المفهوم، ودلالة الإشارة، ففي تعريفه لدلالة المخالفة في التعبير يقول: "وأما مفهوم المخالفة، فهو ما يكون مداول اللفظ في محل السكوت مخالفا لمدلوله في محل النطق، ويسمى دليل الخطاب"[3].

يعبّر المتحاورون عن أحاسيسهم تجاه الثقيل، بعبارات تكون مخالفة لما يدل عليه سياق تلك العبارات، ففي مثل هذا الخطاب الساخر نرى أن القصد منه يفهم بحسب الظروف والسياق الذي ارتبط فيه ذلك الملفوظ أو العبارة الساخرة، على نحو ما يأتي :

1- فرانسواز أرمنكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص 52.

2- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1973، ص 24

3- سيف الدين أبي الحسن علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج2، بيروت 1983، ص 69

"حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا يحي بن أيوب، حدثنا رجل عن شريك : كران، كران، سخت ما أثقلك ما أثقلك !"[1].

"حدثنا أبو محمد الأمين، عن حماد بن أبي حنيفة قال: كنا عند رقبة بن مستقلة، فأتاه رجل كان رقبة يستثقله، فقال : يا هذا، إن ناحيتكم بعيدة والسماء متغيّمة فقم".

قال أبو حفص، حدثنا عثمان بن محمد بن أبي شبيه قال : سمعت منصور بن الحجاج وكان صدوقا فاضلا، وكان إذا رأى بغيضا قال: اللهم اقتله، وإن كان قتله يقتلني فاقتله واقتلني"[2].

من هذه الأمثلة نستقرأ أنّ هناك مجموعة من العناصر الخارجية التي تحدد معنى العبارة وتأويلها، لذا يجب النظر أولا إلى العلاقة الموجودة بين "رقبة بن مستقلة" و"الثقيل"، و"منصور بن الحجاج" مع الرجل الذي يراه ويتمنّى في كل مرة أن يقتلونه ويقتلون الثقيل في المقابل: لكي يتم التأويل والفهم لا بد على "المتلقي أن يحيط بسياق التلفظ من أجل فهم وتأويل الخطاب، لذا نرى أن للسياق الخارجي بما في ذلك عصر النص، وظروف الكتابة، ثم أخيرا عصر القراءة دورا أساسيا في مسار وكيفية تأويل النصوص"[3].

إن معرفة الأحوال والظروف الخارجية لنص ما لا يظهر فقط على مستوى النص، ولكن على المستوى المقامي له، فهو الذي "يسمح ليس فقط بتأويل الملفوظات : بمعنى استيعاب المعنى الصريح التي تحملها/ ولكن يسمح كذلك بتوليد المعاني الثواني الضمنية، ويفهم المرسل إليه المعنى التهكّمي بعد أن يفطر في المعنى الحرفي ثم يستبعده على أنه المعنى المقصود، ولهذا فإن تأويل الملفوظ في السياقات التي تستدعي المعنى التهكمي تكون أطول من تأويلها في سياقات تستدعي المعنى الحرفي"[4].

توظف السخرية من أجل إبراز صفات شخص ما، كأن نقول إن الرجل الثقيل هو (فيل)، ونكون بذلك نقصد السخرية منه، فإن المتلفظ بهذا الكلام قد قام "بتقليد نص أو نوع بغرض الحط منه"[5].

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 105

2- المصدر نفسه، ص 106

3- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص 88

4- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 417

5- D. Maingueneau : Analyse les textes de communication, Dunod, Paris, 1998, p 152

فالسخرية تقع دائما خارج المقاطع لأننا نوظف الاستعارة في الخطاب الساخر، خارج السياق الأصلي "أن السخرية في مجال نعدد الأصوات هي في نفس درجة الاستعارة التي توظف من أجل إبراز قيمة شخص معين"[1].

تتجلى مظاهر اشتغال السخرية في كتاب "ابن مرزبان" كذلك في عنصر المبالغة في وصف الثقيل باستخدام أسلوب الهجاء والعبارات التي تضع المتلقي في موقف حرج منه هذا الخبر[2]:

لي صاحبان، على هامتي جلوسهما، مثل حدّ الوتد

ثقيلان لم يعـــــــرفا خفة فهذا الزكام وهـــذا الرّمد

كما تشتغل السخرية على عنصر العبثية وهو "الأمر الذي يتنافى مع المعقول، وإدراكه قد يثير الضحك"[3] هذا ما نلتمسه في "...قال، قيل للأعمش ما تصنع عند مطهر؟ قال: آتيه كما آتي الحشّ إذا كانت لي إليه حاجة[4] وهذا الخبر له معنى ضمني وهو عدم التطفل والتدخل في شؤون وأعمال الآخرين.

هناك دليل آخر عن طغيان السخرية في كتاب "ابن مرزبان" هو ما يعرف "بالمنطق الزائف" بحيث يعبر الساخر بأمور غير معقولة وتشبه المستحيل في آن معا. فهي حيلة تظهر بها المتخاطبون في أخبار الثقلاء "لإبطال القواعد العقلية المنوط بها عند كافة الناس لإثارة السخرية وتغليب الخصم".

كان الحديث في شأن العملية التواصلية، محط اهتمام اللغويين والبلاغيين كما كان للدارسين والقدماء اهتمام حول الكلام العربي.

والكلام عند "أرسطو" مركّب من ثلاثة عناصر: القائل، المقول فيه، والذي نوجّه إليه الكلام أو القول[5].

1- عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، مقال حول "البعد الحجاجي للسخرية في المقال الإفتتاحي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، د ت، ص 99

2- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 60.

3- العمري آسيا، السخرية في أخبار الحمقى والمغفلين، ص 69

4- ابن المرزبان، م.س، ص 73

5- ينظر : أرسطو طاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تح: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، دار القلم، لبنان، 1979، ص 16

لكي نفهم المقصود من الكلام الساخر لا بد أن نرجع إلى المقام الذي تلفظ فيه المرسل بهذا الكلام والظروف الخارجية المحيطة به، ومن الذي وجّه إليه ذلك الكلام، فالسخرية تفيد في حقيقتها الإبلاغ والوصول إلى غاية معينة أو تهدف إلى الإصلاح، لأنها بمثابة مقوّم بلاغي يهتم بالمعنى المقامي، ونوايا المرسل والمتلقي، لأن السخرية تفهم من المعنى الإستعماري وطبيعة الشخصيات المشاركة في تلك السخرية.

ذلك ما نلاحظ في أخبار الثقلاء، حيث أن بنية القصص والحكايات تحيل على حجج وأحكام وشواهد طريفة، لتوصيل مقاصد السارد في نظرته إلى الثقيل والتأثير فيه، إن "الأثر الفني الذي يتركه النص حتى وإن كان مكتملا ومغلقا دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تختزل، لأن مفهوم الانفتاح حسب هذا الأخير هو مبدأ الإبداع"[1].

تعتبر أركيوني بعض الملفوظات كالاستفهام 'La question" او التقرير كهجينة، وهذه الملفوظات لا هي بالاستفهام المحض ولا إثبات محض، إذ قد يفيد السؤال فيها إثباتا وتقريرا، ويفيد الإثبات والتقرير فيها سؤالا واستفهاما"[2].

يبين كذلك عبد الله صولة أن لإقامة حدود بين الأسلوب الإنشائي والخبري يفرض استخدام المقياس التقليدي في التمييز بينها، فإن ما فهمنا من هذه المسألة هو أن سياقات كثيرة في القرآن يستخدم فيها الإنشاء والقصد إلى التقرير، ويكون ذلك في الاستفهام غير الحقيقي الذي يسميه "بلونتين" "الاستفهام الحجاجي"، وهو بمثابة وسيلة للحجاج[3]. من ذلك خطاب ابن المرزبان الذي نقل خبرا عن عمر بن الخطاب:

"حدثنا أبي، حدثنا هرولة بن عبد الله، حدثنا أبو داود الطيالسي، عن محمد بن أبي حميد، حدثنا زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب، قال: "كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ألا أخبركم بخير أئمتكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الذين تحبونهم، ويحبونكم وتدعون لهم

1- أمبيرطو إيكو، الأثر المفتوح، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، دمشق، 2001، ص 17

2-Voir : C. K. Orrechioni : L'acte de question et l'acte d'assertion, P.UL. 1991, pp 87-111.
نقلا عن: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ج1، ص 486-487

3- عبد الله صولة، م.س، ص 487

ويدعون لكم، ألا أخبركم بشرار أئمتكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم، ويعلنونكم".

"حدثنا عبد الله بن سعيد عن ابن المكندر عن جابر، قال، قال رسول الله (ﷺ) أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا، وأبغضكم إليّ الثرثارون، والمتشدّقون المتفيهقون: قد عرفنا "الثرثارون" فما المتفيهقون؟ فقال : المستكبرون"[1] لقد نقل جابر في حديث رسول الله (ﷺ) أن من صفات الثقيل التكبّر.

مقاصد الخبر في أخبار الثقلاء :

ترتبط مقاصد الكلام في "أخبار الثقلاء" بنوع الكلام والمتكلم، إذا حدث وان استعمل المتحاورون في تلك الأخبار كلام العوام (هزل، سخرية) فهم يتعمدون ذلك لغرض إفهام عامة الناس، أي الذين يستمعون إلى ما يلقى إليهم من نوادر وطرائف بغية الترويح عن النفس، ليعودوا بعدها إلى مجالس الجدّ.

ترتبط جلّ المحادثات أيضا في أخبار الثقلاء في الجدال المرتبط بدوره بالتصورات الاستعارية الملائمة لثقافة العرب. يمكن أن نقدم مثلا استعارة (الثقيل جبل)، التي تستلزم الثقيل عبد بغيض الذي يستلزم البغيض الذي لا يحتمل.

إن الأقوال المنتجة في الأخبار التراثية تعتبر قياسا لما يرغب المتحاورين الإبلاغ به من أفكار وآراء حول الثقيل، لذا ترتبط مقاصدهم حسب درجة المشابهة بين الفكرة والقول، حيث يقترب القول من الاستعمال الحرفي للغة أو يبعد عنه"[2] إنّ تلك الأقوال مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفكرة التي تدور في ذهن المتلفظ، ومعنى القول حين التلفظ به.

1- ابن المرزبان، ذم الثقلاء، ص 50-52

2- آن روبول وجاك موشلير، التداولية اليوم (علم جديد للتواصل)، ص 183.

إن التقنية المعتمدة في "أخبار الثقلاء" لبلوغ القصد من كلام أولئك الرواة، هي استعمال الأمثال والحكم والاستشهاد بالقرآن ليتم إفهام الآخر بأن الثقيل بغيض. كما اعتمدوا أسلوب التلميح لتحقيق الإقناع والتأثير، ذلك في حوار ساخر يناسب مقام مجالسة الثقيل.

إن الدلالة غير الطبيعية لتلك الأخبار تكون متراوحة بين المقصد الإخباري والمقصد التواصلي (أي ما يقصد من تلك الإخباريات) وهو ما يعرف بالمقصد الإشاري الاستدلالي عند "سبربر وولسن".

تتم عملية الإقناع في "أخبار الثقلاء" باستخدام أدوات إقناع مرجعية التي تحيل على الثقافة الاجتماعية والدينية، فالمحاجج يستعمل عادة الدليل أو الحجة، بهدف تضليل الخصم.

تنبني العملية القصدية التي يجب أن تحدث بين (متكلم ومتلق)، والتي تكوّن المقاصد بينها على ثلاثة أنواع: "أوّلي ويتجلّى في المعتقدات والرغبات لدى المتكلم، وثانوي متعلق بما يعلمه المتلقي من مقاصد المتكلم وثلاثي ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد جوابا ملائما"[1]، حيث يكون خطاب المتكلم خطابا مهيئا بخطة مستمرة وشعورية، ما يدعو المتكلم إلى أن يختار كلاما مناسبا ليعبر به عن قصده، ويتلقى جوابا من المتلقي.

لابد من الإشارة إلى المسار الاستدلالي الذي ينبني في خطاب ما على حركية الدّلالة والتعبير بالبراهين والحجج، فقد ذكر "طه عبد الرحمان" في قواعد التخاطب، والتي وضع أسسها التي استقرأها من الثقافة الإسلامية وتنص على مبدأ التصديق الإسلامي و"مبدأ التأدب الأقصى" وهي من المبادئ اللسانية الحديثة الراقية، هما مبدآن قران في العملية التبليغية حيث أن استراتيجية إنتاج الفعل الإقناعي (التأثيري) تستلزم متكلما ذو كفاءة تعبيرية تمكنه من تقديم حججه الى متلقي قادرا على تأويل كلامه. به يتم الوصول الى نتيجة وهي الاستجابة والفهم، بوجه متكامل وتام فالمتلقي لا يفهم قصد المتكلم، من غير أن يعبر له عن مواقفه وأحاسيسه من صفات الثقيل.

1- إبراهيم إدير، القصدية في الأدب العربي "لابن المقفع"، دراسة تداولية، مذكرة ماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2008، ص 9.

ان المخاطب هو المعني الأول في إنتاج نصه الأدبي بحيث هو "نتاج لمؤلف ما يظهر موقفا يوجه من خلال نفسه نحو العالم، وحيث أن هذا الموقف لا يوجد في العالم المعطى الذي يشير إليه المؤلف، فإنه لا يمكن لهذا المؤلف أن يتخذ شكلا من الأشكال إلا إذا تم إدماجه حرفيا في العالم الواقعي، وهذا الإدماج لا يحدث من خلال المحاكاة البسيطة للبيانات الموجودة، بل من خلال عملية إعادة بناء هذه البنيات"[1]

يحمل السياق أهمية بالغة في البحث عن المعنى الخفي في النص فهو نظرية، إذا طبقت بحكمة تمثل الحجر الأساس في علم المعنى، قادت هذه النظرية بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة، كان للسياق دور في الإنتاج وفهم النص، فقد جعله "فان دايك" "يتعلق بتأويل الإشارة الايديولوجية في العالم الخارجي"[2].

إن مقاصد أخبار الثقلاء تدفع إلى البحث عن ملامح حياة، "ابن المرزبان" في شخصياته الساخرة، فإن "قصد المتكلم مرتبط بمعرفة ظروف النص، الموضوعية ووضعية المتكلم ومكانته ووضعية المخاطبين، ففهم الخلفيات المعرفية والظروف التي شكلت النص مفاتيح هامة لإدراك المعاني التي يكتنفها النص"[3].

يشكل الكلام عن "جاكبسون" محور دراسته من خلال وظائفه المتعددة وهذه الوظائف تكون بتوافر عوامل لسانية أو عمليات تبليغية لفظية فكل رسالة لها مرسلا يرسل رسالة أو خطابه إلى متلق فاعل في السياق ويدركه المخاطب، فيكون سياق لفظيا أو قابلا أن يصاغ صياغة لفظية[4].

إن الإخبار عند المرسل والبحث عن تشكيل القصد، هو الغرض من خلال فعل التخاطب، يحدث بينهما وساطة الفكر بين المرسل والمتلقي، فالإخبار هو عملية إبلاغ فكرة إلى

1- حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص 32.

2- O. Ducrot, Dire et ne pas dire, p200

3- سعيد حسين بحيري، لغة النص (مفاهيم واتجاهات)، ط1، لو نجمان، القاهرة، 1997،ص 244

4- محمد مفتاح، المقاصد والاستراتيجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ومناظرات، الدار البيضاء، 1993، ص 58

الآخر والتواصل معه في نمط داخلي خاص بالعلاقة الداخلية بينهما، التي هي التزويد بالمعارف حسب "ديكرو" "تقديم معلومات لازمة والتي غرضها إفادة المخاطب"[1].

إن السارد يجعل من اخباريته مسار حجاجيا استدلاليا يكون بتقديم حجج وبراهين وإعطاء نتيجة نهائية في نهاية كل حكي، لذا نلاحظ مسار الاستدلال والبرهان في (أخبار الثقلاء) من خلال وضع الآلية الحوارية التي يدور فيها سياق الأسئلة المتداولة بين الأعلام والأدباء، والثقلاء كانت الأجوبة عن تلك الأسئلة غير مباشرة أو يمكن القول إنها كانت تلميحية.

1- O. Ducrot, Dire et ne pas dire, p204.

خاتمة

بعد أن فصّلنا في بعض المعلومات التي قدّمت من خلال خطّة هذا البحث، حاولنا أن نناقش أهمّ القضايا والمسائل المتعلّقة باستراتيجيّة خطاب الخبر، وعلاقته بالمنهج التّداوليّ المتّبع الّذي تمّ وفقه تحليل أقوال تلك الأخبار التّراثيّة، وهذا يستدعي أن نقدّم بعض الملاحظات الّتي حاولنا الوصول إليها.

من أهمّ الملاحظات المتوصّل إليها ما يأتي:

ما تعلّق بدراسة خطاب الخبر في السّرد العربيّ القديم، وكيف يمكن تصنيف خطاب الخبر من حيث بنياته وأنماطه ووظائفه، ليتبيّن فحوى ومضمون الخبر في التّراث العربيّ.

كشف أهمّية الطّرائق والوسائل المتاحة لنقل الأخبار، بعقد الصّلة بنوع الخبر وعلاقته بالراوي والمروي له، وأهمية الإسناد في الأدب الرّسائليّ، الّذي يحتوي على كل أوصاف وأصناف الكلام العربيّ، وذلك بجمع مختلف الرّوايات التي تثبّت بها تلك الأخبار.

الإشارة إلى أهمّ الآليات المتاحة للمخبر في عملية الإقناع وأهم العوامل والظّروف المساعدة لبناء حوار سرديّ الّذي احتوى على مختلف الأفكار والآراء حول الثّقيل، وعلاقة بعض مظاهر التّداوليّة الّتي ساعدت على فهم تلك الأخبار المرتبطة، منها غرض الهجاء وعلاقة الخطاب السّاخر في إنشاء تلك الآراء الهجينة، التي وردت عن الثّقيل بشتّى العبارات والألفاظ غير المباشرة والّتي تشير إلى سياق أخبار الثّقلاء.

تجمع الأجناس الأدبيّة على تنويع السّرود في الخبر الواحد، وتساعد على بناء الآراء وجلب العناصر المشاركة في الحدث الحكائيّ.

تبيّن من خلال تصنيف الخبر من حيث بنيته ونمطه ووظيفته أنه يتعيّن على القارئ أو المتلقّي أن يجد ضالته في تحديد نوع الخبر الّذي يروي له، بوجود السّند الذي يحتمل فيه أن يكون الخبر صادقا أو كاذبا.

للسّند الدّيني حضور في المجتمع الإسلاميّ، لذا يستوجب على المتخاطبين توظيفه لتثبيت أقوالهم وآراءهم عن الثّقيل، حيث به يتمّ بناء أخلاقيّات حسن المجالسة وتهذيب النّفوس الضّاغنة والغليظة.

لأنّ الخبر وحدة مستقلّة يمكن به نقل أثرها إلى أثر آخر، فإنّه في القديم وسيلة لنقل الأفكار والآراء وآثار الأوّلين، وذلك لتثقيف القارئ وتزويده بمختلف المعارف والأنساق حيث أنّنا بالإخبار يمكن أن نصل إلى مبتغانا ومقاصدنا بوجود حافز، يساعد المتحاورين في أخبار الثّقلاء على إلقاء خطاباتهم، وهو أنّ هناك في المجتمع فئة جدّ محدودة وقع عليها الحديث.

قام "ابن المرزبان" بتقديم تصورات عن العلاقات الاجتماعيّة والأخلاقيّة السّائدة في عصره حيث قدّم مشاهد التّرف والمجون والخلاعة في فترة سادها التّباغض بين النّاس بسبب الخلافات السّياسيّة وانحلال الأخلاق وفسادها. كان المؤلّف في كتاباته يسعى إلى عرض بعض السّلوكات والآراء التي تؤثّر في المتلقّي في قالب سرديّ ساخر، ساعد على بلوغ تلك الأفكار إلى أذهان الآخرين، خصوصا إلى الثّقيل، فكان أسلوبه موافقا ومناسبا لمخاطبة الثّقيل.

تبنى أخبار الوعاظ على أسس إبستمولوجيّة فنيّة في تقديم أحداث تاريخيّة متعلّقة بأيام العرب في التّراث الإسلاميّ، تتعلّق بأفكار ومعتقدات النّاس الّتي تحتل مكانة عالية تساعد على تصوير ووصف المشاهد والأحداث الطّريفة والجدّية في خطاب سرديّ ذي إتقان في التّركيب البلاغيّ والنّحويّ والّدلاليّ والتّداوليّ.

تراوح خطاب الثّقلاء بين الأقوال الصّريحة والتّلميحيّة "ضمنيّة"، ذلك ما عزّز على إنشاء استدلالات لسانيّة تداوليّة متعدّدة، مرتبطة بالخبر الواحد والحكاية الوحيدة.

تكمن تقنية القصّ في كتاب "ابن المرزبان" في تقديم أفعال تمهيديّة تفتح بها مسار الحديث أو الخبر الحكائيّ، لتتولّد منه مجموعة أخبار عن طريق الإسناد، لتساعد بذلك القارئ على تمييز الأخبار المولّدة منها والمنتحلة، حيث ترتبط صحّة القول أو الحادث بفاعله.

تعدّدت صيغ الأداء وتنوّعت في الخبر لرصد مختلف الأخبار والأقوال، تراوحت بين صيغ الجمع (حدثنا – أنبأنا – أخبرنا) وبين صيغ الفرد (حدثني – أخبرني – سمعت – قال ....)، هذا التّعدد في الصّيغ جعلنا نتعمّق ونتمعّن أكثر في خصوصيّاتها المتمثّلة في عنصر التّشويق للمعرفة أكثر، بمتابعة مستجدّات الخبر والحدث، حتى يصل إلى نهايته. تلك هي الاستراتيجيةّ التي اتّخذها المتخاطبون ليتبيّن أن الخبر يتطوّر بانتقاله إلى خبر آخر، وهو هدف الإخبار. إن هذا المسار

التّوليديّ في الأخبار التّراثيّة يمنح القارئ ميزة القراءة الجيّدة، ثم الفهم الجيّد للوصول إلى المغزى في الكلام العربيّ القديم.

يلاحظ في نصوص "جلال الدين السّيوطيّ" أنه يجمع بين روايات الأدباء والشّعراء والأعلام الدّينية والسّياسية، فقد أشار إلى الثّقلاء بذكر نوادرها بعامل الإسناد ليجعل القارئ يحكم بنفسه على صحّة تلك الأقوال، حسب قائليها، على الرّغم من أن معظم نصوصه عبارة عن نظم، سعى من خلالها إلى التّأثير في القارئ ليستنتج المغزى النّهائيّ من تلك الأخبار الشّعريّة.

إنّ اللّغة عنصر أساس في بناء التّواصل، فلولاها لما استطاع النّاس الإنشاء لما يوجد في أذهانهم وما يشعرون به من هواجس، من بعض المواقف، فقد عمد المؤلّف "ابن المرزبان" إلى اختيار آليّات بلاغيّة عديدة أتاحت له فرصة التأثير في الثقيل باستغلال التماثلات الاجتماعية التي يتم بها تشكل الآراء والمعتقدات ومختلف العقليات، ولكي يحدث ذلك لا بد من الإحاطة بمختلف قوانين الخطاب بما فيها النفسية والموضوعية المحيطة بذلك الخطاب والعناصر المشاركة فيه.

يقدّم مصنّف "أخبار الثقلاء" مختلف الآليات الحجاجية وعلاقتها بالمنطق، حيث تبين لدى بعض الدارسين أن هناك فروقات بين ما يعرضه المخاطب من حجج في خطاب مغالطي بالحجاج الطبيعي، وما يمثله الاستدلال الصوري بالحجاج المنطقي (اللغة المنطقية)، وهي أهم فكرة توصل إليها "حسان الباهي" في كتابه "اللغة والمنطق- بحث في المفارقات-"، حيث وظف المتخاطبون في رواية أخبار الثقلاء الحجاج المغالطي الذي يتفرع إلى نوعين : المغالطة المرتبطة بالمفهوم، والمغالطة المرتبطة بالمقصود، أي أن المتلقي يمكن أن يفهم من خلال تلك المغالطات المقصود منها.

تبيّن أيضا من خلال معاينة بعض الخطابات في المصنّف "أخبار الثقلاء" أن الخطاب المغالطي مرتبط بالخطاب السّاخر، كما يمكن عدّهما شيئا واحدا، ذلك أنّ المخاطب في أخبار الثقلاء يتكلم عن صفات الثقيل بتوظيف المغالطة والسّخرية معا.

تشكل الخطاب الإخباري في أخبار الثقلاء بشتّى الطرائق ليبلغ في الأخير مقصدا واحدا وهو تعليم الناس حسن المجالسة والتأديب مع الآخرين، في قالب سردي هادف يتمثل في إصلاح وتعديل سلوك من يسمّى بالثقيل.

إن هذه النتائج ما هي إلا مجرّد ملاحظات حاولنا استنطاقها مما قمنا به من تحليل لنص يحتاج إلى التعمق أكثر، ولكي نحلل خطاب الثقلاء نحتاج إلى موسوعة أخلاقية ونفسية واجتماعية تكون فيها معالجة هذه القضية شاملة ودقيقة من باحثين في مثل هذه المجالات، هذا ما يحفز على المضي قدما من أجل مواصلة العمل في عنصر أساس هو "العلم".

يجب الإقرار أن البحث في المنتوج التراثي أمر ليس يسيرا، إلا أنّني حاولت جاهدة على الرّغم من الصعوبات التي واجهتني أن أستغلّ كل ما أملك من طاقات، من أجل الإسهام في بعث التراث، وكيف كان أصحابه يفكرون ويلاحظون ويحكمون".

والله وليّ التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم. رواية حفص.
- **المراجع باللغة العربية:**
- الآمدي سيف الدين الحسن بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، ج2، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب المصرية ، بيروت 1983.
- الأبشيهي شهاب الدين، المستطرف في كل فن مستظرف، ج1، تح: عبد الله بن أنيس الطّباع، دار القلم، بيروت، د.ت.
- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط2. القاهرة، د.ت.
- الإدريسي رشيد، سيمياء التأويل الحريري بين العبارة والإشارة، المكتبة شركة النشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، 2000.
- إسماعيل عز الدين، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- بحيري سعيد حسين، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، لونجمان، ط1، القاهرة، 1997.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
- ـــــــــــــــ، البيان والتبيين، ج4، تح: محمد أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998.
- ـــــــــــــــ، رسائل الجاحظ، تقديم علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، ط3، بيروت 1995.
- جبار سعيد، التوالد السردي قراءة في بعض أنساق النص التراثي، جذور للنشر، ط1، الرباط، 2006.
- ـــــــــ، الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، شركة مدارس للنشر والتوزيع، ط1، الرباط، 2004.

- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية وصيدا للطباعة والنشر، ط3، بيروت، 2001.
- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، أخبار الحمقى والمغفلين، شرح عبد الأمير مهنّا، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990.
- خليفة عبد المجيد أحمد، فن الفكاهة والسخرية عند شعراء المملوكية، المكتبة الأزهرية للتراث، الأزهر الشريف، القاهرة، د.ت.
- الدمشقي ابن كثير أبو الفداء الحافظ، قصص الأنبياء، تح: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2010.
- الدينوري إبن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- الراضي رشيد، الحجاج والمغالطة، من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010.
- الزمخشري ابن عمر، أساس البلاغة، ج1، دار صادر، بيروت، ط1، 1992.
- السكاكي يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- السيوطي جلال الدين، إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء، تح: محمد بن سليمان مال الله، جمعه وقدم له، بومية محمد عبد الله بن محمد السعيد الشنقيطي، ط1، الكويت، 2009.
- الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة، ط1، بيروت، 2004.
- صحراوي إبراهيم، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، دار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2008.
- صولة عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، جامعة منوبة، تونس، 2001.
- ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، دار المعارف، ط13، مصر، دت.

- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1989.
- عتيق عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة، بيروت 1985.
- العسكري أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل، الفروق في اللغة، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيروت، 1983.
- ـــــــــ، جمهرة الأمثال، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.
- عشير عبد السلام، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية، إفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء، 2006.
- العمري محمد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت، 1999.
- ـــــــــ، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء، 2000.
- فرنسيس مريم، في بناء النص التخاطبي الإحالي، منشورات الثقافة، دمشق 2001،
- ـــــــــ، في بناء النص ودلالته محاور الإحالة الكلامية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998.
- القاضي محمد، الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية، دار المغرب الإسلامي، ط1، تونس، 1998.
- كيليطو عبد الفتاح، الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 2006.
- ـــــــــ، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1988.
- لحمداني حميد، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2003.
- المبخوت شكري، نظرية الحجاج في اللغة، منشورات كلية الآداب، جامعة المنوبة، دت.
- المتوكل أحمد، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، سلسلة بحوث ودراسات، جامعة محمد الخامس، المغرب 1993.

- ابن المرزبان محمد بن خلف، ذم الثقلاء، تح: محمد حسين الأعرجي، منشورات الجمل، ط1، ألمانيا، 1999.
- مشبال محمد، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2010.
- ـــــــــ، بلاغة نادرة، دار جسور للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، طنجة، 2001.
- بن المعتز عبد الله. طبقات الشعراء، ج4، تح: عبد الستار فراج، دار المعارف بمصر، القاهرة. 1981.
- مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج3، مطبعة العلمي العراقي، 1987.
- مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال، ط1، دار البيضاء، 1990.
- ـــــــــ، المقاصد والاستراتيجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1993.
- إبن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار الجيل، بيروت، 1988.
- الميداني أبو الفضل، مجمع الأمثال، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.
- الهاشمي أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: دار يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت 2002.
- وادي طه، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1993.
- وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، ط3، القاهرة، 1979.
- يقطين سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، المغرب، 2006.
- ـــــــــ، الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1997.
- اليوسي الحسن، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج1، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، ط1، المغرب، 1981.

المجلات والدوريات:

- بلخير عمر، مقالات في التداولية والخطاب، مقال حول البعد الحجاجي للسخرية في المقال الافتتاحي، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، د.ت.
- ـــــــــــ، مقدمات في الحجاج والنص، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو 2011.
- بوبكري راضية خفيف ، التداولية وتحليل الخطاب، مقال في مجلة الموقف الأدبي، العدد 399، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004.
- بوسنة فتيحة، إنسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي، مقاربة تداولية، مقال في مجلة الخطاب، العدد 10، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2012.
- الرقبي رضوان، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مقال في مجلة عالم الفكر، العدد02، مج 40، الكويت، 2011.

الرسائل الجامعية:

- إيدير إبراهيم، القصدية في الأدب العرب "لابن المقفع" دراسة تداولية، مذكرة ماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2008.
- ثابتي يمينة، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي دراسة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2007.
- سعدلي سليم، تشكلات السرد الساخر ومقاصده في المنام الكبير لركن الدين الوهراني، مذكرة ماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو 2012.
- عابد رشيدة، الأشكال النثرية القصيرة في عيون الأخبار لابن قتيبة، دراسة تصنيفية، مذكرة ماجستير، 2010
- العمري آسيا، السخرية في كتاب أخبار الحمقى والمغفلين مقاربة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، 2010/2009.

- الكتب المترجمة:

- أرسطو طاليس: الخطابة, الترجمة العربية القديمة, تحقيق: عبد الرحمن بدوي, وكالة المطبوعات, دار القلم, بيروت, د.ت.
- ـــــــــــ، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، دت.
- أرمنكو فرانسواز: المقاربة التداولية, تر: سعيد علوش, مركز الإنماء القومي, الرباط, 1986.
- إيكو أمبرتو: الأثر المفتوح, تر, عبد الرحمن بوعلي, دار الحوار, دمشق, 2001.
- جينيت جيرار: خطاب الحكاية, تر: محمد المعتصم وآخرون, منشورات الاختلاف, ط3, الجزائر, 2003.
- دلاش الجيلالي: مدخل إلى اللسانيات التداولية, تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- روبول آن وموشلير جاك، التداولية اليوم: علم جديد للتواصل، تر: سيف الدين دغفوس- محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2003.
- ريكور بول: فلسفة بول ريكور(الوجود والومان والسرد), تر: سعيد الغانمي, المركز الثقافي العربي, ط1, الدار البيضاء, 1999.
- غادامير هانس: فلسفة التاويل, تر: محمد شوقي الزين, منشورات الاختلاف, الجزائر, 2006.
- فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 2000.
- لايكوف جورج وجونسن مارك، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال للنشر، 1996.

الكتب باللغة الأجنبية:

- Dews S. et Winner E.: obligatory, processing of literal and nonliteral meanting in verbal irony, journal of pragmatics, volume 31, 12 Novembre, Paris, 1999.
- Ducrot O. : Les échelles argumentatives, les éditions de minuit, Paris 1980.
- _____: Dire et ne pas dire, Herman, Paris, 1980.
- Genette G., Figures III, édition du seuil, collection points, Paris, 1979.
- Hamon P., Pour un statut sémiotique du personnage, in : Poétique du récit, Seuil, 1977.
- Maingueneau D: Analyse les textes de communication, Paris, Dunod, 1998.
- Orrechioni, K.C, l'implicite, Armand colin, Paris, 1986.

المواقع الإلكترونية:

- بدر عبد الحميد هميسه: فوائد من حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه/سلسلة أحاديث وفوائد، د.ت، الموقع: http://www.saaid.net/hamzabadr.htm
- الحجاج في العصر الحديث، منتدى اللسانيات، 16 جويلية، www.lissaniat.net